المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الرابع عشر بعد المئة

مارس سنة ١٩٤٩ — ١ جمادى الاولى سنة ١٣٦٨

طوفان القدم

صراع بين اللاهوت والعلم

إزاء علم الجيولوجيا

— ١ —

عقلية الجمود ونشوء التعليلات اللاهوتية

بدايات علم الجيولوجيا عند الاغارقة والرومان — موقف الكنيسة ازاء العلم — النظريات الجيولوجية عند أوائل اللاهوتيين — موقف رجال المدارس — ابتكارات المدارس العربية — نظريات أوائل رجال البروتستانت — تأثير احياء العلوم.

نقع عند فلاسفة الاغريق، وفي زمان مبكّر، على جراثيم من العلم الجيولوجي والحقائق الجيولوجية، وقد نقع على ما هو أجدى من هذا وأنفع، ونقعد بذلك جوًّا قد تنمو فيه هذه الجراثيم وتربى. انتقلت هذه الجراثيم إلى الفكر الروماني، واتعش جو التسمح واستمر أثره. فلم يقم من عامل يصد الفكر عن التأمل في طبقات الارض أو بقايا الاحياء التي توجد في تلك الطبقات. وفي ظل الامبراطورية الرومانية بدأ عهد مثمر من المشاهدة العلمية.

وعند ما بسطت النصرانية سلطانها على العالم واحتكمت فيه، استظل الناس بانقلاب جديد. كان موقف الكنيسة عند البداية إزاء علم الجيولوجيا وما يعت اليه من العلوم، موقف التهاون، بل الاحتقار والازدراء. والسبب في هذا أن المعتقد السائد كان منطوياً على أن الارض «عالم منبوذ» وانه عما قريب سوف يتدثر ويتحطم. فلماذا تكب على درس حالاته؟ ولأي سبب تفكر فيه؟ ذلك بأن الازدراء الذي وجهه لاكتانتيوس والقديس أوغسطين إلى علم الفلك، قد امتدّ إلى غيره من العلوم.

غير أن جراثيم المعرفة والفكرة العلمية التي فرخت في الدنيا القديمة، لم يتسنّ للبلاغة ولا للمنطق أن يبدّداها ويذهبا بريحها. فانك ولاشك واقع على قليل من المشاهدات العلمية ومعترف حتماً بوجودها، بالرغم من أن كل تفكير جدّي فيها قد عصف به اللاهوت، حتى أن القديس «بيروم» قد مضى مقتنعاً بأن تلك الصدوع والاعوجاجات التي نراها في قشرة الارض، إنما ترجع إلى الغضب الالهي من أثر المعصية، كما قال «ترتليان» إن الحفريات إنما هي أثر من آثار الطوفان.

* * *

ومن أجل أن تظل هذه المشاهدات وتلك الفكرات في حيز الارثوذكسية، بدأ القديس أوغسطين في بداية القرن الخامس يبذل أقصى الجهد في سبيل أن يتشيء من هذه الجراثيم ضرباً من العلم، فسمّى الطابع المسلم المأخذ. وبهذه الميول وضع تعليقه الكبير على طريقة الخلق بحسب ما رويت في سفر التكوين، كما استعان على ذلك بكتابات أخرى. ولم يلبث أن يأخذ فقه بهذا العمل

حتى انصرف بكليته اليه انصرافاً لم يباره فيه أي أب من آباء الكنيسة من قبل. ولكن كفاياته العليا في البحث وعمق فكرته في التأمل، عامة اذا لم يتجه نحو المشاهدة الواقعية أو التفكير وفقاً لهذه المشاهدة. فان حجر الزاوية في أسلوبه التفكيري قد انحصر في عبارته المشهورة: « لا يمكن أن يقبل من شيء لا يتفق وولاية الأناجيل، لأن هذه الولاية هي ولاشك أعظم من كل كفايات العقل الانساني ». وكذا توجه بفكره جميعاً إلى درس المتون المقدسة بحرفيتها، وحاول أن يجعل هذه المتون مفسرة لظاهرات الطبيعة، بأساليب لاهوتية صرفة.

ونقل هنا شيئاً من المسائل التي أثارها وناقش فيها: «ما هو السبب في أن النجوم خلقت في اليوم الرابع؟» — «أخليقت الوحوش المفترسة والحيوانات السامة قبل هبوط آدم أم بعده؟» — «إذا كانت قد خلقت قبل هبوطه، فكيف نوفق بين هذا وبين خيرية الله؟ وإذا كانت قد خلقت بعد هبوطه فكيف نوفق بين خلقها وبين نص كلمة الله؟ — لماذا حشرت الوحوش والطيور أمام آدم لتسمى، ولم تحشر الأسماك والحيوانات البحرية؟ — لماذا لم يقل الخالق لنباتات كوني مثمرة وتكاثري، كما قال للحيوانات؟

***

نسجت إجابات عشوائية لهذه الأسئلة ومثيلاتها، فكانت الابتكارات التي اهتدى اليها أعظم الآباء اللاتين تفسيراً للمعرفة الدنيوية، بعد دراسة كاملة للمتون الانجيلية، وتطبيق عميق شامل للفكرة اللاهوتية. أما النتائج التي ترتبت على هذه الابتكارات فكانت ذات بال. فان أوغسطين في هذا المجال العلمي، وفي غيره، قد وجه تيار الفكر الرئيس في غربي أوربا، سواء أكان في الكثلكة أم في البروتستانتية، قرابة ثلاثة عشر قرناً من الزمان.

في العصور التي تلت عصر أوغسطين، اتبع العديد الأوفر من دارسي الفكر خطواته من غير مناقشة أو بحث. ولا يفوتنا أن رجلاً قوي الشكيمة مثل البابا غريغوري الأكبر قد عنى لسلطانه، زعماء مفكرين وقادة علماء مثل سان إزيدور في القرن السابع، والمحترم «بيده» — Bedé في القرن الثامن، قد أسسا علمهما على مقدمات أوغسطين، ولم يستطيعا أن يخرجا في شيء عن نتائجها، على الأسلوب الذي وضع أساسه وأقام قواعده.

لقد اتمّ «إزيدور» في كتابه «الاشتقاقات» — Eytmologies بما حاول أوغسطين من قبل إذ شاء أن يربط بين الخلق وبين عبارات سفر التكوين، برباط مقنع. فلما نظر في الحفريات، وهي بقايا المخلوقات البائدة المتحفظة في باطن الارض، ظن كما ظن «ترتليان» من قبل، انها من مخلفات طوفان نوح. وفي القرن التالي مضى «بيده» يرتّب تلك المأثورات التقليدية.

* * *

إن أقوم تفسير يساير بعض الشيء المعنى الجيولوجي، قد صدر عن أحد أتباع القديس أوغسطين، وهو راهب إرلاندي من الدارسين، أراد أن يقلل من الصعوبة التي تعترض الفكر اللاهوتي من ناحية استيطان الاحياء وتوزعها على سطح الأرض، وبخاصة حقيقة أن الحيوانات التي هي في إرلاندا هي بذاتها التي في انجلترا، فقال إن الأراضي التي هي منفصلة الآن، كانت متصلة في سالف الأزمان ولكن العوامل اللاهوتية، مع الأسف، قد أجبرته على أن يجعل انفصالها تالياً لحدوث الطوفان. من حسن حظه انه في عصره لم تكن قد عرفت حقائق كتلك التي تدل على أن «الكنغر» — Kangaroo لا يوجد إلا في جزيرة منعزلة في

المحيط الهادي ، وأنه بالتبعية لنظريته ، ينبغي أن يكون قد هاجر إلى موطنه الحالي ، مع كل ولائده ، متتبعاً طريقاً خفيًّا لم يستطع أحد من الوحوش زملائه في سفينة نوح ، أن يشقه إلى حيث أقام .

* * *

هذه هي خطوط الفكر العامة التي اتبعها القديس أوغسطين في علم الجيولوجيا وما يتصل به من العلوم كعلم الحيوان ، وتبعه فيها كتلة لاهوتيي العصور الوسطى ، إذا ما توجه انتباههم إلى درس مثل هذه الأشياء .

* * *

الخطوة الثانية التي خطاها علم الجيولوجيا على يد الكنيسة ، تمت من طريق اللاهوت المدرسي . ولكن البحث الصحيح فيها قد خضع لتنسيق العبارات . وفي خارج الكنيسة ، كما في داخلها ، استحدثت ابتكارات فذة طريفة . ففي القرن الحادي عشر عزى « ابن سينا » تكوُّن الحفريات إلى قوة فيها قدرة على تحليق الصخور . وفي القرن الثالث عشر ، عزاها « ألبرت الكبير » إلى « خاصية تصويرية » . وفي القرون التالية جسر بعض الفلاسفة على القول أنها نشأت من بزور ، كما اتخذت نظرية أرسطوطاليس في التولد الذاتي سبيلاً إلى القول بأن هذه الحفريات المتحجرة لها قدرة التوالد كالنبات والحيوان .

برغم هذا نجد أن الآراء التي غرسها الفكر الاغريقي والفكر الروماني قد عادت إلى الحياة ، مرة هنا ، وأخرى هناك . فإن رجال المدارس العربية لم يلتزموا حرفية القرآن ، كما التزم حرفية الأناجيل معاصروهم من رجال المدارس النصرانية . وإلى فيلسوفهم الكبير « ابن سينا » يرجع الفخر الأول في تصوير النظرية

الجيولوجية الحديثة تصويراً واقعيًّا ، نظرية التغيرات التي تصيب قشرة الارض [1] .

* * *

كان الأثر الذي أحدثه الاصلاح الديني أول الامر ، غير مُسوات للتقدم العلمي. فانه لم يكن من شيء فيه روح المعاندة للنظرية العلمية في نشوء الكون ، من تلك الفكرات التي اعتنقها قادة البروتستانتية . فإن استمساك لوثر وميلانكتون كل الاستمساك بحرفية الاناجيل ، وبخاصة رفضهم فكرة ان السيارات تدور من حول الارض ، قد امتدّ إلى كل المقررات العلمية الاخرى التي تخالف النصوص المقدسة . وهنالك كثير من الحق في القول بأن العقبات التي أقيمت في سبيل العلم كانت عند أوائل البروتستانت أزرم وألصق بالتفسيرات المستمدة من الكتب المقدسة ، منها عند رجال الكنيسة القديمة . أما الروح الشامل بين رجال الاصلاح الديني ، فلا يظهرك عليه كما يظهرك تصريح بطرس مارتر ، أو بطرس الشهيد ، إذ قضى بأنه إذا انتشرت فكرة خاطئة في الخلق تخالف قصة سفر التكوين — « فإن كل تبشيرات المسيح تنتهي إلى لا شيء ، ويقضي بذلك على حياة الدين النصراني » .

في العصور التي عقّبت على حركة الاصلاح الديني ، سارت أحوال الفكر من سيء إلى أسوأ . فانه في ظل لوثر وصاحبه ميلانكتون ، عاش تدرٌ ضئيل من حرية التأمل ، ولكن في ظل أخلافهم قضيَ على هذه الحرية قضاء تامًّا . فإن الشك في أي تفسير من التفسيرات التي قال بها لوثر ، قد اعتبر معصية تعادل

(١) انظر كتاب سير شارلز ليل وسيو دارشياك — Sir Charles Lyell and Mr. D'Archiac.

الشك في تفسير الكتب المقدسة ذاتها . والمثل الأكبر على هذا ، ذلك الصراع العنيف الذي قام به القائلون بأن الطيور خلقت من الماء خاصة ، والقائلون بأنها خلقت من الماء والطين معاً . ففي مدينة « لوبيك » وهي المركز القديم «للعصبة الهنسية» وفي قرابة ابتداء القرن السابع عشر ، نشر « بفيفر » المشرف العام أو الاسقف في تلك النواحي ، كتابه المسمى «وحدة الحكمة الموسوية» — Pansophia Mosaica ظاناً انه بذلك الكتاب سوف يهزم العلم إلى الأبد . وفي منظومة من الجلدات الطويلة ، مضى يقول وباقتناع كامل إن النص الحرفي لسفر التكوين هو طريق الأمان ، وانه يتضمن كل الحكمة وكل المعرفة ، بشرية وإلاهية . وإذا كان الأمر كذلك ، فمن ذا الذي يعنى باتفاق وقته في درس الاشياء المادية ، ويفكر في تركيب العالم ؟ وفوق هذا كله ، وبعد تقرير ذلك الرأي من حاكم له سلطانه في الدنيا اللوثرية ، لم يجرؤ أحد على أن يتكلم في « أيام » الخلق التي ذكرت في سفر التكوين على أنها « أحقاب متطاولة من الزمان » ، أو في « القبة السماوية » على أنها ليست قبة سماء جامدة تظلل الكون ، أو في « المياه التي هي فوق القبة السماوية » على انها ليست محوية في حوض عظيم يرتكز على هذه القبة ، أو في « نوافذ السماء » على أنها ليست متصلات للكلام والتحدث منها .

* * *

تجلت هذه الروح ذاتها في انجلترا وظلت متسلطة إلى زمان سير «ماتيو هيل» . فقد نجد في كتابه المسمى « بأصل النوع الانساني » المنشور في سنة ١٦٨٥ نظرية حرفية تشكلت بمقتضى ما جاء في المتون المقدسة ، ظهر فيها العجز التام عن تكوين فكرة في أصل الارض وتكونها ، مستمدة من أي مصدر آخر .

وبينما كان الاصلاحيون من لوثريين وكلفينيين وانجليكانيين يتشبثون

بالتفسيرات الحرفية للكتب المقدسة ، مشيحين بوجوههم عن البحث العلمي منصرفين عنه ، نشأ في بيئة من معاصريهم وفي يده حركة « الاحياء العلمي » ، فكرات مثمرة في تلك الناحية من العلم في بداية القرن السادس عشر ، كون « ليوناردو دافنشي » ، وهو من أفذاذ العلماء كما هو من أفذاذ الفنانين ، الفكرة الحقة في أصل البقايا الحفرية ، ومضى معاصره « فراكستورو » ينشىء الفكرة ويربيها بمقتضى الأساليب التي رسمها الفكر الحديث . ذلك في حين أن غيرهما في أنحاء مختلفة من أوربا ، قالوا بفكرات لم امتزجت بكثير من الآراء الفجة ، فإنها أمدت العلم بحقيقة تلو أخرى . وعند أواخر القرن السادس عشر ، استوعب « برنارد بالسي » ، في فرنسا هذه الفكرة وتمثلها بنبوغه الذي تجلى في قدرته على الخلق الفني ، فاستطاع أن يرفع صوتها ويسمعه الكثيرين . ومع هذا فقد ظل كثير من اللاهوتيين والفلاسفة ، بل وبعض رجال العلم ذوي الصيت ، يقولون ، متأثرين بسلطان العبارات المدرسية ، بأن الحفريات هي من آثار « مادة دهنية خثرتها الحرارة » ، أو هي من أثر « عصارة صوانية » ، أو نتيجة « حركات ثورية أحدثتها تنفسات أرضية » . بل عم هنالك اعتقاد في أن البقايا الحفرية على وجه عام ، يمكن أن تكون في جملتها من « ألهيات الطبيعة » ، وعقب المؤمنون على ذلك بأن هذه « الألهيات » قد تكون نتيجة غرض غير مستبان من أغراض الله : القادر على كل شيء !

وظل هذا على أنه الأسلوب التفسيري للعقيدة الارثوذكسية في الكنيسة ، من بروتستانت وكاثوليك ، خلال عدة قرون متعاقبة .

(البقية في العدد القادم) (تعاقيب المحرر)

نظرات في النفس والحياة

— ١٣ —

نظرات جونثان سويفت

كان سويفت انجليزيًّا ولد في ارلنده وعاش بها في صباه ثم عاد اليها في أواخر أيامه ومات بها وقد كان فقيراً فأكسبه الفقر غيظاً وشعوراً بالنقص كان يخفيه بالكبرياء عندما نبغ وعاشر العظماء والوزراء وقد عاش مدة في انجلترا أشبه بكاتب للسير وليام تمبل السياسي الانجليزي وقد استشهد ماكولي في رسالته عنه برسائل سويفت التي تدلل فيها للسير وليام وأظهر ان ضرورة هذا التذلل كانت تحز في نفسه وقلبه وتزيد من شعوره بالنقص . ولكن ما كولي في رسالته عن السير وليام تمبل وصف كيف ان سويفت قد استفاد علماً من مكتبة متبوعه كما استفاد خبرة عملية من معاشرته رجلاً تقلب في مناصب مختلفة واكتسب خبرة بالحياة والناس . وقارن ما كولي بين الدكتور صمويل جونسون الاديب الانجليزي والكاتب الشهير وبين سويفت فقال ان آراء الأول مكتسبة من الكتب أما آراء سويفت فهي مؤسسة على الخبرة بالحياة . وقد خدم سويفت وزراء حزب المحافظين أولاً بقلمه وكان يأمل ان يتعصب أسقفاً في الكنيسة ولكن الملكة رفضت ذلك لأنه في بعض كتبه يسخر برجال الدين وطوائف الكنيسة وينقد طرازاتهم واختلافهم في أمور تافهة . واشهر مؤلفات سويفت كتاب أسفار جاليفار يطالعه الصغار لغرابة قصته والكبار لما فيه من نقد لحياة الناس . وقد خولط في عقله في أواخر أيامه وقلما سلم منه صديق لحدة طبعه . ويزعم من تلك الحدة أحبته امرأتان وهما التي رمز للأولى باسم ستيلا وللثانية باسم فانيسا وقد قال ماكولي ان انهيار عقله في آخر حياته كان مثل انهيار دولة كبيرة. ويقول سير والتر سكوت ان فانيسا ماتت غمًّا لسبب زواجه سرًّا من ستيلا ولو انه من المعروف ان فانيسا ماتت من السل وقال ثاقد ان سخر فولتير كان مثل وخز سلاح الم

أما وخز سخر سويفت فكان أشبه بوقع فأس القاتل . وقد اتخذ من سخر عبقريته وشدته في القول وسلاطة لسانه سلاحاً في السياسة لم يسبق له مثيل فجعل المقالة السياسية مقالة أدبية مرهوبة لأنه أكسبها رائع الأسلوب كما أكسبها الخيال والأدب والفكر والسخر والشدة. ولكن شدة سخره كما تظهر في المقالات السياسية كمقالات دربير التي يقترح فيها على سبيل السخر بخصومه من الوزراء طهي أطفال الارلنديين وأكلهم وبتفنن في وصف طهيهم. كذلك تظهر شدة سخره في وصف ياهو المخلوق القذر في كتاب أسفار جاليفار وقد رمز به الى الانسان وفي مواضع أخرى كثيرة وقد قارن فولتير بين رابليه الساخر الفرنسي وبين سويفت فقال ان كليهما ذو بصيرة وفطنة ولكن رابليه كان يحب الحياة والناس. أما سويفت فكان يكره الحياة ويحتقر الناس .

وحب رابليه للحياة سواء أكان حبًّا للذات الجسم أم كان حبًّا للذات الفكر أمر مشهور تفيض به كتبه. وكان يحارب به الرهبنة في المسيحية ونظرها الى الحياة والفكر . ويمتاز سويفت بأنك لا تجد حرفاً أو كلمة يصح حذفها في قوله . أما رابليه فقد كان أسلوبه غزير المترادفات وأشباهها فكأنه في غزارته السيل المتدفق أو النبات الغزير . وكما ان كليهما قد يعوق السير فكذلك قد يعوق إتمام قراءة رابليه ما به من غزارة الكلام وكثرة الاشارات الى أمور غامضة كانت معروفة في ذلك العهد البعيد . إلاَّ أن قراءة كتبه تحبب الحياة وتدعو الى الأمل والى الرغبة فيها . أما كتب سويفت فقد تدعو الى احتقار النفس البشرية واليأس من الناس . ولكن هذا لا يقلل من رصانة تفكيره كما يتضح في النظرات الآتية التي نوردها مع التعقيب عليها .

(١) قد يكثر الناس من الأعذار والأسباب حتى ينتحلوا الزائفة منها فيضيفونها الى الوجيهة ظنًّا منهم ان كثرتها تزيد الواجهة الوجيهة رجاحة ووجاهة. ومن قلما يفطنون الى ان زيف الزائفة ينتقص من رجاحة الراجحة، ويدعو الى الشك فيها، وهذا أمر شائع يضيع الناس به حجتهم ويبطلون حقهم، وان كانوا على حق وكذلك الضعيفة من الحجج تضعف ما أضيفت اليه من الحجج القوية ويحسبون أن كثرتها تقنع المفكر فيها، ولكنه اذا فطن الى ضعف الضعيفة ربما خالجه الشك في غيرها . وقد يحسب الناس قوة الأخيرة من بلاغة

صاحبها أو مكره واحتياله فاذا وثق السامع من بطلان بعض الاسباب أو ضعفها أبى الاقتناع كل الاقتناع بالسلبية وتحرز من قبولها كل التحرز. وهذا مثل أن يتضح للسامع كذب بعض القول فيشك فيه كله أو يرفضه أو يحكم ببطلان الصدق لجناية الكذب الذي أضيف إليه.

(٢) مهما عظمت المنافع التي استفادها المرء منك فانه قد يحقد عليك إذا كانت له شهوة ظلم أو حقد أو بغض لانسان ولم تُعِنْهُ على ظلم ذلك الانسان أو على إيذائه أو انتقامه ولم تساعده على التشفي منه، فانه يعدك ممالئاً له وإن لم تكن ممالئاً ويراك خاذلاً لنفسه كأنك خذلته في الخير والعدل. فان الشهوات لا تنصف ولا تتذكر خيراً استفاده منك صاحبها ولا تأبه لما يفرضه عليك العدل من الامتناع عن ظلم الناس وإيذائهم. فكأن ما أسديت إليه كان نعماً زائفاً وأمراً مدلساً — ويدهش الناس لو فطنوا الى حدّ ينقادون إلى مثل هذا الاغراء بالشر والالحاح في الحث عليه وهم ينقادون إمّا خوفاً أو طمعاً أو كسلاً أو استهواء أو شهوةً أو جهلاً أو ما شابه ذلك. وبعضهم يحسب الانقياد الى الشر ضرورة لا مناص منها مع هذا الالحاح وإن كرهها أو ادّعى لدى نفسه أنه يكرهها أو كان يهاب عاقبتها وربما ينقاد إليها وهو لا يسوغها فقنع نفسه بالباطل، إنه إنما انقاد الى ضرورة من ضرورات الحياة التي لا مناص منها وربما فالط نفسه وعدّ انقياده الى الالحاح على عمل الشر والاذى من ضرورات الحياة التي لا مخرج منها ولا مناص كي يطلق لنفسه العنان لاشباع نهمها الغريزية في عمل الشر ولتسترسل فيما هو حبيب إليها منه. والانسان قلما يتجنى أو يعمل الشر بالحاح مغر أو بغير إغراء وإلحاح إلاّ وهو يعد لنفسه الاعذار كي يستريح إمّا من تأنيب الناس وإما من وخز الضمير.

(٣) أكثر الناس عندهم من الايمان والدين القدر الذي يغريهم بكره الناس لمخالفتهم إياهم في أمر من الامور وليس عندهم القدر الاعظم من الايمان الذي يغريهم بحب الناس — فترى الناس يضطهد بعضهم بعضاً وقد يكون هذا الاضطهاد خشية عدوى آرائهم وأعمالهم أو قد يدعون أنهم يضطهدونهم لانهم يحبون لهم الخير ويخشون عليهم الشر أو الاذى. وهذا يذكرنا بقصة (العذاب بالأمل) لمؤلفها فيليب دد ليل آدم الفرنسي وفيها أحد رجال

الكنيسة من أعوان محكمة التفتيش يعذب الناس وتكاد تذوب نفسه إشفاقاً عليهم ورحمة لهم إذ لا يعذبهم كي يظهرهم بالعذاب ولم يكتف بالعذاب المادي بل كان يعذب السجين بالأمل فيترك له باب سجنه غير مرصد كي يطمعه في الهرب فاذا أوشك الرجل أن يهرب وينجو من العذاب دلف إليه واعتنقه واحتضنه رحمة له وعاتبه برفق لرغبته في الهرب من التطهير بالعذاب والألم وقلبه يكاد يذوب إشفاقاً عليه من تلك النجاة وهذا يذكرني قول الشاعر

فكنت كذبّاح العصافير جاهداً وعيناه من وجد عليهنّ تهمل

وهذه القسوة الموصوفة في القصة قسوة ممزوجة بهستريا الرحمة ولكن أكثر النفوس في قسوتها في الحياة لا تحتاج الى مزيج من هستريا الرحمة الكاذبة.

(٤) كثيراً ما يخطىء ويخيب ذوو التفكير في أمور الحياة العامة حيث يصيب النجاح من قل عقله وفكره فإنّ شدّة تصوّر ذوي التفكير وإدراكهم جوانب الأمور واحتمال ما يكون، وحدة ذهنهم في بحث تفاصيل الأمر صفات قد تدعو الى الحيرة والارتباك والتواني والى الشطط عن القصد في أثناء تلمسهم جوانب التفكير في الأمر بينما يمضي الرجل الذي لا يفكر كثيراً الى ما يكلّف عمله فيصله عملاً متقناً ويصل إليه من أسهل الطرق وأقربها وأكثرها وُرّاداً وإنما مَثَل ذلك مثل المدية اذا شحذت شحذاً شديداً وأردت أن تقطع بها أطراف أوراق كتاب فإنها ربما جادت وجنحت من حدّتها فلا تقطع أوراق الكتاب قطعاً منتظماً بل قد تتلفها بينما لا تجيد المديّة التي هي أقل منها شحذاً. ولعلّ سمة التفكير تدعو الى أن يعد صاحبه من الممكن عملياً ما هو من المحال ولقد رأينا نابليون - وإن يجح في تنظيم إدارة فرنسا وفي تنظيم معاركه بينما كان خياله وفكره يدعوانه أحياناً الى طلب المحال - وقد عرفت من الشبان الأذكياء من أصابوا نجاحاً كبيراً في الحياة وكان يتنازعهم العاملان عامل الإرادة الواقعية العملية وعامل الخيال والفكر اللذين كانا يؤدّيان الى فشلهم لو استسلموا إليهما كل الاستسلام.

(٥) يوهم الناس الانسان لأنه لا يعرف حدود مقدرته ومقدار عجزه ونقصه ولكنهم قلما يتوهمون أنه قد يجهل قدرته وكفايته وملكات نفسه وقد يخسها ويلتمس نصيب

نفسه منها لأنها تكون كامنة خافية عنه لا تظهرها إلا الحوادث المواتية المناسبة وربما اختفاؤها عنه كاختفاء منجم الذهب ومعدنه في بطن الأرض فانه يخفى على من هم على سطح الأرض ومثل هذا الانسان الذي يخفى عنه مقدار ملكاته كمثل من يعيش على سطح نفسه كما يعيش الغافلون عن المعدن الذي في بطن الأرض ممن هم على سطحها — وقد يستنبط هذه الملكات الايحاء أو الحب أو المنافسة أو الضرورة، والضرورة التي تستنبط الحيل والقدرة والملكة في بعض النفوس اذا صحبها ما يدعو الى الارتباك أو كان في جهاز جسم صاحبها ما يدعو الى الحيرة، أخل بملكاته ولم ينتفع بها كل الانتفاع كالذي لا تظهر كنوز نفسه إلا اذا ابتعد عن الضوضاء. فان ضوضاء الحياة قد تشردها كما يشرد الغرب افكاره اذا سمع جلبة وأصواتاً صاخبة. ولكن بعض الناس لا تظهر كل مقدرته وملكاته وكنوز نفسه إلا اذا خاض غمار الحياة وعالج الناس وعشرتهم واحتكت نفسه بالنفوس كما يحتك حجر الصوان بالصوان. وقد يفاجأ المرء بروز ملكاته وقدرته كما يفاجأ بروز صاعقة وقد كان لا يظن ان عنده تلك القدرة كما كان الناس لا يرونها في نفسه وانتفاض النفوس متنوعة.

(٦) دعانا بعض الفلاسفة الى نبذ أكثر رغباتنا حتى اذا بلغت أقل جهد مستطاع أمكننا ان نحصل عليها من غير مشقة كبيرة ومن غير ان نشقى في الحياة. وهذه الدعوة مثل دعوة من هو في حاجة الى النعل ان يقطع رجليه قد يستغنى عن النعل فلا يشقى بطلبه ولكن ما تقدم إلا بالطلب كما لا يتقدم من هو في حاجة الى النعل إلا بقدميه. ومن قديم لزم ما شحذ ذهن الانسان وما عقله ومرن بدنه إلا لأنه خالف هذه الدعوة الى انتقاص الرغبات والحاجات واستسن لنفسه سنة الاقبال على طلب الدنيا.

(٧) لو ان انساناً كتب جميع آرائه في أمور الحياة المختلفة منذ صغره الى ان صار شيخاً لوجد اختلافاً وتناقضاً كبيراً في آرائه في كل أمر من الأمور في مراحل العمر المختلفة. ومع ذلك فان الناس كثيراً ما يلومون المرء لأنه غيّر وبدّل في آرائه وهم لا يعلمون انى أنهم يغيرون ثيابهم وأزياءهم ومطالبهم. ولو أن انساناً لم يتغير رأيه في الأمور من عهد طفولته الى مماته لدلّ ذلك على ان عقله لم يكبر وأنه أشبه بالحفريات المتحجرة وان كانت

عنده يسميها التغير أيضاً — ولعل السبب في ذلك ان الناس يخلطون بين تغير النفاق الذي سببه الاهواء وتغير الثمر وهم يميلون الى سوء الظن فينسبون كل تغير الى النفاق الذي يجعل المرء شبيهاً بالآلة التي توضع في مَهَبّ الرياح فتعرف بها الجهة التي تهب منها . فتغير الرأي قد يكون تَهَدِّياً الى الصواب وتموّاً في العقل وقد يكون طيشاً وعبثاً فيمن لا رأي له . وقد يكون مكراً واحتيالاً للكسب . وبالرغم من ان الناس يلومون من غيّر رأيه فانهم اذا وجدوا أرَباً أو نيلاً منه أو فتحاً فيه تناسوا رأيه الجديد وألزموه رأيه القديم وهو يتبرأ منه .

(٨) عرفت أناساً كانوا ذوي مواهب كبيرة نفعت غيرهم ولم تنفعهم فَهُم كصاعة الظل التي كان الناس يضعونها أمام بيوتهم فينتفع بها المارّة ويعرفون بها مرور الزمن ولا ينتفع بها أهل البيوت الذين نَصَبُوها . وتلك المواهب النفيسة قد لا تنفع أهلها حسب بل قد تضرهم فإن الفائدة المرجوّة للمرء في الحياة لا تكون على قدر مواهبه وإنما تكون على قدر ما يستطيع الاحتيال له من المكاسب والمزايا . فإذا لم تسعفها تلك المواهب على ذلك الاحتيال أخطأت تلك المزايا ولو أن نفوساً أخرى غير نفس ذلك الإنسان لم تنل ما تريد مما يعدل مواهبها ويناسبها ويوازنها ما بالت نفسه، وقلما تسخّطت أو حاولت عبثاً أن تغير سنة الحياة إلاّ في حالتها .

(٩) رغبة بعض المفكرين في إبطال مطامح الناس التافهة ورغباتهم التي لا قيمة لها في ذاتها ، وإنما تكتسب قيمتها من تكالب الناس وتهالكهم عليها ، خطة تدل على نقص في الحكمة والخبرة بأمور الحياة إذ أن كثيراً من أمثال تلك المطامح اذا جعلت جزاء العامل ومكافأة للمُجيد ، ترغبة في الكدح والعمل وفي ارتياد سبل الفضائل والفضل . أما أن يقال إن الفضائل ينبغي أن تطلب لمحبتها والرغبة فيها لا لجزاء عليها فنظرة حسنة ولكن طباع الناس في الحياة تخالفها وتتطلب جزاء عليها ولا مناص مما تتطلبه الحياة، فالشهرة والرتب والأوسمة وما شابهها أمور لا قيمة لها في نفسها ولكن قيمتها فيما تؤدي إليه من العمل والجد . ولقد ترى الرجل الفقير الجائع يكدح طول حياته ويتخلق بخصال الحمد ما استطاع الى ذلك سبيلاً كي ينال رثاء حسناً اذا مات وكي يكتب بعضه على قبره — وهذا يذكرنا كلمة لنابليون

بونابرت في هذا المعنى وفي فائدة الرتب والأوسمة عند ما لام على إحيائها بعد أن محتها الثورة الفرنسية . ولكن سويفت بالرغم من فطنته الى أنها وأمثالها مدعاة الى العمل ومن محركات الحياة فانه يسخر بالمتهالكين عليها في كتاب أسفار جاليفار . اذا اتخذوا الاتمار والكيد والتملق وسائل إليها وأمعنوا في عمل الشر بسببها .

(١٠) بالرغم من أنه لم يكن بين الناس من استطاع أن يجمل أراء الناس ذات طول وعرض ونظام ومقصد واحد فإن كل مفكر يود أن يحمل الناس على اعتناق آرائه أو يأمل كما أمل أبيقور أن يصير الناس يوماً الى زمن مقبل تتشابه فيه الآراء والأنظمة بعد أن يُعَذِّب بعضها بعضاً كما يشذب الحَصَى بأحتكاكه ، فتتحول الحصوة الثقيلة والخفيفة والمستديرة والمستطيلة الى شكل واحد ووزن واحد أو كما أمل كارتيزيوس أن تجذب فلسفته الآراء الفلسفية المتناقضة إليها فتدور حولها كما تجذب الكواكب غيرها من الكواكب . ومن هذا السبب نشأ اضطهاد الفكر للفكر . فلو تقصينا التاريخ لوجدنا كل طائفة تدعو الى حرية الفكر ما دامت تضطهدها غيرها فاذا تخلصت من الاضطهاد وصارت لها السيطرة حاولت أن تقيد أفكار غيرها ومن أجل ذلك كانت محاولات تحرير الفكر مصحوبة بالرغبة في تقييده أو يعقبها اضطهاد من نوع آخر — وقد تتبع (فان لون) في كتابه (تحرير الانسانية) خطوات هذا الاضطهاد من عهد الكهوف الى عهد الجيلوتين. ولو كان الفكر غير باعث على العمل ربما استطاعت الفئة الغالبة إهماله . وما صنعه (فان لون) صنعه في صيغة أخرى برتراند ده جوفنيل في كتاب (القوة) وقد قال جوفنيل إن كل من يستبد بالقوة إنما يفعل ذلك بدعوى أنه ينوب عن الشعب والواقع كما أوضح أن في استسلام الشعب ما قد يسوغ هذا القول وانما كان ينذر الشعوب من عواقب المستقبل . ومن الغريب أن جوفنيل وكان مندوب فرنسا في سوريا يقول في القوة قولاً قاله قبله شيلي الشاعر الانجليزي في صيغة أخرى فقد قال في بعض قصائده (إن القوة كالوباء الذي يتفشى فيصيب كل ما يقربه والخنوع لها عدو للذكاء والفضيلة والحرية والحق ويحيل الناس أرقاء ويجعل أجسامهم آلات مسيرة) ولكن كيف يستطيع الانسان أن يكون في غنى عن القوة أو أن يقيدها ؟؟

فالثورة الفرنسية التي كانت ثورة على القوة وأعطت في أول الأمر كل مدينة أو اقليم حق التخلص من حكومة كهذه ، حتى ضعفت سلطة الوزراء فضعفت الدولة بسبب ذلك ، ما لبثت أن صارت في عهد نابليون أو عهد السلامة مركزية شبه توتالية . وبالرغم من أن جان جاك روسو في كتابه « العقد الاجتماعي » كان يشير الحريات الفردية فان له نزعة توتالية تظهر في أمور كثيرة منها تقديس الدولة والقول باعدام حق كل ارادة في الارادة العامة. ومنها إباحة حكم الحاكم الدكتاتوري الفرد الذي ينوب عن الديموقراطية في بعض الأحايين. ومنها القول بنبي أو فهر من له ارادة لم تنعدم في الارادة العامة . ولما كانت الارادة العامة كالديموقراطية أمراً تقريبياً فهي إرادة الكثرة أو ما يُسمَّى الكثرة ، وإن كانت كثرة ظاهرية . وبعض اليعقوبيين الديمقراطيين قالوا — عند ما كانوا قلة — إنهم كثرة لأنهم يمثلون حقائق الشعب الحقيقية وإرادة أجيال الشعب في العصور الطويلة المقبلة عند ما يتهم كل آحاده أن يعدم إرادته في الارادة العامة . فالعالم لا يزال تتنازع فيه القوة الطوائف والأحزاب المختلفة وكل يريد أن يسود رأيه وأن يقهر رأي غيره . ومن الطريف أن نابليون بونابرت وقف يوماً على قبر جان جاك روسو وقال — وقد كان في صغره يردد آراءه — لقد كان من الصالح العام لو أن هذا الرجل لم يولد . فقال له جيراردين ان آراءه أفسحت لك الطريق يعني تأثرها في الثورة الفرنسية فقال نابليون : ربما كان من الصالح العام لو أنها كانت لم تولد .

(١١) ربما خُيِّل لنا أن الكلام الواني الكثير عن المحدث أو الخطيب دليل على غزارة مادته من اللغة والرأي وهو كثيراً ما يكون دليلاً على أن مادته محدودة فيستطيع اختيار ما يختار من الكلام من غير مشقة . فاذا غزرت مادة الإنسان من لغة أو علم أو رأي قد يطول تردده قبل الكلام — ولعل في هذا بعض العزاء لذوي العي إذ غاية ما تسل إليه غزارة المادة أن يكون المرء أشبه بالعيي في تردده قبل الكلام من وفرة المادة كما قال الشاعر :

تكاثرت الظباء على خراش فلا يدري خراش ما يصيد

وكثرة الكلام مع قلة الفائدة أمر معروف . ولعل أضحكه من هذه الثرثرة وإن كانت ثرثرة كسيحة من بلاغة الأديب مؤلفها كتاب (محاضرات الكسلة) أو الناموسية

والسرور وهي محاضرات تعظ فيها مسز كودل زوجها وتؤوبه بعد ذهابهما الى الفراش وهي من تأليف دوجلاس جيروله . وقلة المادة لا تعوق تأثير الكلام الكثير في السامع فإن الكلام يؤثر بترداده كما هو مشاهد في السياسة وفي غيرها من مظاهر الحياة المختلفة . بل لعل قلة المادة تدعو الى أن يفضله كثير من الناس لقلة الجهد في فهم مادته القليلة .

(١٢) قد يتحدث الرجل صاحب الفطنة والذكاء فيخالط بعض كلامه شيء من السفاهة العامية البريئة فيحسبها السامع انتقاصاً له وهي ليست انتقاصاً وإنما يفعل ذلك اذ يقول في نفسه إن هذا الرجل المفكر لا بدَّ أن يكون وراء كلامه معنى مستتراً غير ظاهر بمعناه — ومثل هذا الشك غير مقصور على المحدث الفطن أو من كان من أهل التفكر من الناس وإن كان يساء الظن بهم أكثر من غيرهم . فإن السامع إذا صادف كلاماً فائق صفة يخشى أن يظنها الناس في نفسه عد كلامه تعريضاً به وربما تسرَّع بالإساءة الى قائلها ومن أجل ذلك يُفرَض على مؤلفي القصص أن يقولوا إنهم لا يعنون أحداً بأناس قصصهم وإنهم من صنع الخيال . والواقع هو أن صاحب الفن يستمد من الأمور المشاهدة العامة مادة لفنه فيجعلها فناً عامًّا ولكن الناس كثيراً ما يحيلون الفن العام الى شخصيات معينة وذلك في قول المفكر أو القصصي أو الشاعر . وأكثر هذه الإحالة ترجع الى العقد النفسية وإحساس الناس بصدق قول فرويد في كتاب (العلل النفسية) إن كل نفس إنسانية تجمع في وعيها الباطن ونزعاته وصفاته الكامنة كل ما هو إنساني في جميع النفوس بل كل ما هو حيواني في الحيوانات كلها فيجمعون كل ما في الوعي حقيقة كائنة في الحياة متى أرادوا وانتقالهم بالفن أو الفكر من التعميم الى التخصيص يكون بالرغم من ميل الناس إذا كان لهم أرب أو شهوة الى التعميم في أحكامهم المخطئة . كتعميمهم في الحكم على الأمم أو الأحزاب أو الطوائف الكبيرة .

(١٣) في أثناء طلب أمر من الأمور ومحاولة نيله والسعي والعمل له يفكر المرء في محاسنه وأطايبه ومسراته وفضائله فاذا ناله بدأ يفكر في أوجه النقص فيه وفيما قد يكون فيه من المساوىء والعيوب وإنما رُكِّبَتْ النفس على هذا الوجه وجبلت على هذا الطبع كي تستأنف مطالب الحياة وكي تطمع في المزيد من محاسن الأمور فتعمل وتكد وربما بحثت

الأمر الذي نالته كي تستطيع تحقيق هذه السنة الحيوية التي هي نظام الحياة .

(١٤) اذا هاج البحر ورأى أهل سفينة ان تُخَفِّفَ أحمالها وأثقالها كي تنجو وينجون من الغرق بأن يقذفوا ببعض أحمالها في البحر ، ربما حاول كل منهم ان يخفي متاعه ويعطي غيره كي يلقي متاعه في البحر وهذا مثل الذين يضحون نفع أنفسهم على نفع الجماعة ونجاتها ، فتضيع أنفسهم وتضيع الجماعة التي هم منها وهذا النوع يكثر عادة في الأمم التي فقد أحادها الثقة بعدل حكومات بائدة وحكومة كائنة .

(١٥) اذا أراد الانسان ان يتسلق ويعلو فلا بد ان يتسلق كما تعمل القيركدة على قدميه ورجليه . والطمع في مناصب الجاه والسلطة قد يتطلب من المرء ما هو شبيه بالزحف على اليدين والرجلين ويعني التقرب بوسائل التملق والخنوع ومعاونة من يرجى نفعه على شهوات غضبه أو حسده أو محاباته الى آخر هذه الأمور فقد شبهها بالزحف على القدمين واليدين أو بالتسلق بهما كما تعمل القرود .

(١٦) الطير في حيلة كثير من الأزواج ان لها بدل أن يتخذن من الزواج أقفاصاً لازواجهن كأقفاص العصافير المُدَلَّلة البيتية التي تزيّن أقفاصها كي تأنس اليها ، يتخذن من الزواج ما يراه الرجال أشبه بالفخاخ والشباك التي تصاد بها الحيوانات .

(١٧) كثيراً ما يذكر أهل التعاسة حكم الدهر ومشيئة القدر الغالبة النافذة . أما السعداء فقلما يذكرون هذه الأمور ولا سيما الذين يثقون إن الجاه والثروة والسعادة لن تزول عنهم إذ ان هؤلاء يرون حتى أثر الأقدار في توزيع الصحة والمرض والذكاء والغباوة والأحوال المساعدة للنجاح . وهذا يذكر لنا قصة رجل أصاب غنيمة من مال كثير اختلسه من غير تعب ، فكان اذا طلب منه انسان صَدَقَةً يقف ويلقي عليه محاضرة في فوائد الاجتهاد والجد في العمل ويقول له لو كنت اجتهدت لصرت مثلي .

(١٨) كثيراً ما يعلل المرء نفسه بأن العصور المقبلة ستقبل على ما انصرف عنه أهل عصره وستشغل بما كان أهل دهره عنه في شغل . فينصرفون عمله أو قوله كما أراد وينسى ان أهل العصور المقبلة تَسْتَجِدُّ لَهُمْ فيها أقوال وأمور تُعْجِبُ في شغل وهذا الوهم هو مما يزيد اقبال الناس على العمل والفكر والتضحية وان كان قلما يتحقق ، ولكنه من سنة الحياة التي تزيد ثمرة أعمال الناس حتى بالوهم .

(لم تنته بقية) ع . ش

آراء
في العظماء والعظمة
— ٢ —
لأميل لودفج

العظماء من الرجال إنما هم عظماء في الحجم والشكل . ذلك إلا ان لهم من المحامد والمذام ما لرجال العاديين مع فارق واحد هو زيادة الحد في كل شيء ومقداره . فاذا درست النفسية كانوا هم والرجال العاديون بمنزلة سواء (بيرون)

فقاطعته « دولي » قائلة بصوت عال : قل لي بحق السماء . لماذا لا يدور حديثك إلا حول هؤلاء الساسة القدماء كأن ليس بين رجال الفن أي عظيم ؟

— هذا ينقلنا الى ميدان آخر . إنّ المفكرين والمصورين والشعراء الذين يخلّفون وراءهم آثاراً باقية قد يسهل على المرء أن يعرف أقدارهم كأفراد من عظماء الفكر أكثر من معرفته بأولئك الذين يتقرّى المرء أقدارهم من ثنايا حوادث قد فنيت وزالت . فنحن لا نعرف شيئاً عن « هومير » سوى انه كان عبقريّاً « هذا إذا كان « هومير » هذا قد عاش يوماً ما على ظهر هذه الدنيا » .

ونحن إذا لم نكن قد عرفنا أبداً شيئاً عن « شكسبير » أو « موزار » فقد يبقى لنا طابع العظمة لرجلين مجهولين .

ولو أنّ ألحان « شوبير » أو « بيتهوفن » قد انحدرت إلينا مجهولة المولد والنسب لقلنا عن منشئيها إنهم عظماء . وذلك كما نسمي الجندي المجهول عظيماً دون أن نعرف من هو ذلك الجندي .

إنّ معرفة تفاصيل حياة أولئك الناس تكشف لنا عن أشياء كثيرة ، ولكنها لا تزيد أو تنقص في قدر أعمالهم وقيمتها .

والفنانون المبدعون يختلف مصيرهم الاختلاف كله عن مصير المقلدين المزيفين .

وحذاق الموسيقيين والممثلين ومهرة المصورين يعيشون ما بقيت أشخاصهم ويتردد رنين أصواتهم . فمن كل الموسيقيين الذين كان قومهم يفتنون بهم لا نجد إلا واحداً منهم قد نشر إسمه بالخلود . ذلك هو « باخ » (١٧٨٢ — ١٨٤٠) وهو عارف الكمان الذي طاف أوروبا يعزف ألحانه . ولقي نجاحاً في كل بلد حل به . ذلك لأن صاحب هذا الاسم كان إذا عزف . سحر النساء بعزفه . وكان يغمى عليهن إذا سمعن ألحانه .

قالت العازفة الشابة : من ثم يتبين أن ليس من مستلزمات العظمة أن يكون صاحبها من أولئك الذين يحيون حياة تتفق والخلق الكريم .

الفيلسوف : نعم إن ذلك ليس من مستلزمات العظمة . فتنصت كلتا المرأتين الصمداء وذلك على الرغم مما بينهما من تفاوت وتباين .

ثم يستطرد الفيلسوف يقول : إن هناك بالطبع شيئاً اسمه « العظمة الخلقية » . ولكن العظمة — بادئ ذي بدء — ليس الخلق من شرائطها الأولى .

التاجر : إنك لن تستطيع أن تسمي عظيماً رجلاً ذا خلق . فخلقه وحده . فإن عامل اللاسلكي الذي لا يغادر سفينته التي ضربت « بالطوربيد » حتى يقضي القضاء أمره لا يسمى عظيماً .

الفيلسوف : لك أن تسميه — ان شئت — بطلاً . ولكن لن يسمى — بأية حال — عظيماً فهناك أبطال كثيرون ليسوا — في الحقيقة — عظماء . وهناك عظماء كثيرون ليسوا أبطالاً . فالجندي الذي أنقذ بفضل شجاعته وذكائه حياة ثمانين من إخوانه في معركة « دنكرك » يستحق وساماً . ويتأهل أن تؤلف الإشادة باسمه أغنية . بل قد يستحق أن يقام له تمثال . ولكنه لن تظهر صورته أبداً في ساحة العظماء .

دولفي : وماذا تقول في عظمة الرجال ذوي الذكاء ؟

— إنهم بعيدون عن أن يسموا عظماء . وأني أنكر — في قوة وإصرار — هذه الدعوى . فالقول في عراكه مع العمل ليس دائماً منتصراً . فإن القتيل الذي نعرفه عن « الاسكندر » كرجل من رجال الفكر ليس السبب في كونه عظيماً .

قالت العازفة في صوت خريد : ولكن الاسكندر كان فتى جميلاً !

فقالت لها صاحبتها : جميل ! لقد أبدعت . ولقد بعد مرور حياتك وعى هذا فإن أي نجم من نجوم الشاشة البيضاء يمكن أن يسمى عظيماً !

الفيلسوف (ضاحكاً) : إن الناس على أية حال يظنون ذلك . ولكن إذا جاء فاتح من الفاتحين وكان له جمال « الاسكندر » فإن هذا الجمال يكون حتماً جزء من عظمته . فهو بجماله كالله يقدم الأغاني والشعر الوجداني لكل القطع الموسيقية التي عزفها في حياته .

الطفل : ومن هو الاسكندر ؟

الفيلسوف : هل سمعتم ما يقوله الطفل ؟ إنه قد أنصت لأنه سمعنا نتحدث عن رجل جميل .

التاجر : إذن حق لي أن أفترض أذن لك أن تقول : ان الرجل الدميم لا يمكن أن يكون رجلاً عظيماً .

الفيلسوف : لقد كان كثير من العظماء دميمي الخلقة أنظر الى صورتي فولتير وداتني فقد كان لهذين الرجلين أمارات من النبوغ تبدو على وجهيهما . أمّا سقراط فقد كان في فرط دمامته يشبه برنكليس في فرط جماله .

ثم وقفوا جميعاً وبدأوا يمشون هوناً على الشاطىء مولّين وجوههم شطر الشمس الغاربة وكان الطفل يسبق القوم حيناً . وحيناً يمشي وراءهم . ولكنه يعود دائماً ليمسك بيد أمه .

الفيلسوف : إن الشمس صارعت العظماء كلهم فصرعتهم فماتوا وعاشت بعدهم . وهي تبدو كل يوم كأنها أوشكت على الفناء . وإذا بها تولد كل يوم مرة أخرى .

التاجر : دعني ألخّص القضية : إنك قد بيّنت لنا إلى هذه اللحظة أنّ العظمة إنما تتمثل في الروح البانية لدى السياسي . وفي الروح المبدعة لدى الفنان . وفي الحالة الأولى نرى ان الشخصية هي قوام العظمة وملاكها . وليس الأمر كذلك في الحالة الأخرى .

فما قوام العظمة وملاكها لدى الروّاد والمكتشفين والمخترعين ؟

فصاحت « دوللي » : هذا سؤال جدّ عسير . وقد أمسكنا أخيراً بخناقك !

فضحك القوم كلهم . وضحك الفيلسوف لضحكهم . ثم أجاب في هدوء وتؤدة : ما الذي أصار « كولومبس » شخصية عالية . ولم يضف هذه الصفة على « فاسكودا جاما » ؟

فلو أنّ شخصاً مجهولاً كان أوّل نازل بأرض «سان دومنجو» لكان الظن به ـ أكبر الظن ـ أن يصيبه ازكام وأن يبنى له نُصُب ينقش عليه: «مكتشف أمريكا».

وقد صار «كولومبس» الشخصية الحيّة التي يعرفها كل طفل في هذه الدنيا عن طريق قصته التي هي بالأساطير أشبه. فقد نشأ فقيراً يكسب بضع دراهم. ثم شبّ فصار شاباً مغموراً يسافر إلى بلاد بعيدة تلازمه أحلامه الضخمة. ثم ظلّ بعد ذلك عشرين عاماً يطارد القوم ويلاحقهم ـ في إلحاح والحاف ـ بمشروعاته الخيالية. ثم اذا هو آخر الأمر يستطيع أن يسحر لبّ أقوى ملكة في زمانه حتى لتنزل لهذا المغامر عن حليّها. وحتى لتستودع هذا المخاطر بواخرها وحتى تمنيه بالثروة والجاه.

ثم يسافر هذا المغامر فوق متن البحر. ويكتشف أرضاً وهو لا يعرف أنّه قد اكتشفها. ثم يعود فيصبح سيّداً من أولي المجد. ثم يوشى به ويفترى عليه. ثم يسلك في السلاسل والأغلال. ثم يموت يوم وافته منيّته مجهولاً من الناس كلهم. بل جاهلاً هو أنه قد اكتشف ما اكتشف.

إنها هذه الصورة التي تصوّر عظمته. وهي قصةٌ يتوجها الخطأ!

العازفة: ما أبدع هذا الوصف؟ لكأنّك شاعر من الشعراء!

فضحك الفيلسوف وقال: لتمنيت أن لا أكون شاعراً. ذلك لأني أنظر في الصفحة الأخرى التي تناقض الشعر. إني أنظر الى الصدق!

دولي: نعم! نعم! ولكن ما قولك في الرواد عندنا. هل تقول أنهم لم يكونوا عظماء؟

— بل كانوا رجالاً بارزين. ومع ذلك فلم يشتهر منهم أحد.

التاجر: وعلى هذا فأنت تجعل الشهرة صنواً للعظمة؟

— إنما أقول أنّ الشهرة آخر الأمر أي في غضون أجيال تحدّد مكانة أعلام الرجال. إنّ نبوغ رجل من النوابغ قد يظل مذكوراً لجيل أو جيلين. ثم إذا بهذا النبوغ يُعرف قدره، ويشتهر بين الناس أمره. حدث هذا «لكوبرنيكوس» و«لجاليليو» اللذين كانا عند الناس في عداد القوم الضالين المضلّين.

وكان هذا نصيب كثيرين من رجال الفنون بل من النبيّين.

إنّ كثيراً من الرجال أولي الفضل ينالون من قومهم فوق ما يستحقون من قدرهم ينسون بعد حين . وإنّ آخرين منهم لا يقدرهم قومهم حق قدرهم . ثم يُرفع قدرهم بعد حين. وهذا ما يفسر لنا العزلة التي يسعى وراءها ذوو الفضل من الرجال . حتى أولئك الذين يقومون على خدمة الجمهور . بينما نرى أناساً هم في المقام الثاني يفرّون من العزلة ويهربون . ودليل هذا قائم في المقارنة بين « شارل الخامس » . وكان أقوى ملك في زمانه . وبين « سيزار بورجيا » فان الأول كان حليف عزلة . بينما الآخر — وقد كان مدخول النسب — كان لا همّ له الاّ أن يرى الأيدي تصفق له . وألاّ أن يسمع الألسن تهتف باسمه وتمجده

التاجر : وماذا تسمي أولئك الرجال الذين قدرت أعمالهم الجيدة حق قدرها وهم أحياء ثم لم يمجد فضلهم وقد غيّبتهم القبور ؟

الفيلسوف (مبتهجاً) : إني أسميهم رجالاً محظوظين . ولو أنك سألتني من هو الرجل العظيم الذي استمتع بالوجود الكامل في حياته . والذي ظلّ اسمه مذكوراً طوال الدهور لقلت . . .

قالت العازفة : انه لورد بيرون ؟

قالت المدرّسة : بل هو اوغسطس ؟

الفيلسوف : قد يمكن أن يكونا كذلك لولا ما غشى أيامهما الأخيرة من عتمة وظلام . والرأي عندي أن العبقري الكامل هو « تيتيان » (١٤٧٧ — ١٥٧٦)

التاجر : إننا لا نعرف من أمر صاحبك هذا شيئاً .

وقالت المدرسة (وقد بان عليها الغضب) : اذا كان الأمر كما تقول فلماذا لم تكتب تاريخ حياته ؟ .

الفيلسوف : ذلك لكي لا أفقده ! وعلى أية حال فقد كان هو واحداً من أولئك المصورين العظام . القلائل الذين أعجبهم العالم . بل قد يكون أعظمهم . وهو في الوقت نفسه قد عاش كواحد من الملوك . بل هو قد جعل الملوك تُحسّ أنّه أعلاهم مقاماً . فقد كان نابغاً في فنّه . وقد كان نابغاً في حبّه . وقد كان نابغاً في بعد صيته .

مثل هذا الرجل يذكّرني بتلك الأشجار الهائلة الضخمة التي تقوم في الغابة كالحصون

وهي تَطلّ من أعاليها على نجوم الغبراء التي لا تقوم على سوق .

ومن نجوم غابتنا ـ أي هذه الدنيا ـ ظلت طوال حياتي أرقب هذه الأشجار الهائلة الضخمة . وذلك منذ رأيتها أول مرّة في « أفريتيا » وهي شاهقة الذرى . ومذ كنت أرى طائراً ضخماً يطير من شجرة الى أخرى حيناً بعد حين .

التاجر : ولماذا لم تتفقد عنهم يوماً من الأيام فيما بيننا . وفي عقر دارنا ؟

الفيلسوف : لقد فعلت ووجدت أعظم رجل قابلته في حياتي .

دوالي : ومن كان ذلك الرجل : هل كان الرئيس ولسن ؟

العازفة : هل كان « بدروفسكي » ؟

التاجر : بل هل كان « هنري فورد » ؟

وعندئذٍ صاح الطفل وهو يردد إسم « هنري فورد » . ذلك لأنه كان يعرف الاسم .

الفيلسوف : لقد عرفت الثلاثة . ثمّ توقّف الفيلسوف عن القول ونظر إليه القوم آملين راجين .

وظلّ هو ساكتاً يستمتع بما أثار فيهم من تطلّع . ثمّ تكلم فقال : إنه كان « توماس إديسون » .

قالت « دوالي » وقد خاب أملها : تقول من ؟ ولكن لماذا يكون اديسون ؟ ألِأن إسمه يذكّرنا بالمصباح الكهربائي . وبالفونغراف . أو لأنه قد يكون لصاحب هذا الاسم بعض العلاقة بجهاز الصّور المتحركة . وربما بالراديو ؟

ـ كلاّ ! فلا دخل للمصباح الكهربائي أو الفونغراف . إنّ شخصية « إديسون » كانت من ذلك النوع القوي المتسلط الذي يخضع له كل من تربطه به صلة .

وهو كرجل تقدّمت به السن ـ يوم رأيته ـ كانت تلوح على ملامحه العظمة . فرأسه الوقور الذي اشتعل « شيباً » . والذي لم ينجُ من أثر السنين . بل زاده تقدم السن رفعة واعتزازاً . وضحكته التي هي بضحكة الشاب أشبه . وصوته الجهوري الذي ينبثق عن صدر صاحبه . والتزامه المألوف في كل شيء . وبهجته التي يشعّ تلألؤاً وضياء . كل أولئك يكفي لو كنت رأيته جالساً على الرمل عند غروب الشمس دون أن أعرف من كان هو . حتى

لأرى نفسي مدفوعاً الى السؤال : من هو ذلك الرجل الكامل ؟

إنّ خيالنا يوجد تلازماً بين هذا الرجل العظيم وبين جميع الاعمال التي نفكّر فيها. وكذلك بينه وبين صنوف الكفاح التي تغلّب فيها على خصومه. وكذلك بينه وبين ومضات الفكر الوضّاءة التي أضاءت العالم. ولن يجد الباحث شيئاً من هذا عند « هنري فورد » أو « بدروفسكي » أو « ولسن » وكلهم قد قاموا بأعمال جليلة في عصرنا هذا.

التاجر : وما رأيك في « باستور » ؟

العازفة : وما رأيك في « دارون » ؟

الفيلسوف : رجلان من العظماء. ومع هذا فإنّ مجدهما لا يرجع الى ما اكتشفه كلاهما أو اخترعه. فإنك لن تجدي الاّ رجلاً في كل عشرة آلاف قد قرأ شيئاً عن أعمالهما. ولكن اللبن المعقّم على طريقة « باستور »، وتلك النظرية المزعومة التي تقول إنّ الانسان من سُلالة القردة قد تأثّر بهما خيال الملايين من الناس. بينما « كوخ » و « لامارك » اللذان يكادان يدانيهما عظمة لم يوهبا شهرتهما.

دوللي (وهي تهزّ كتفيها) : كل هذا ظاهر عندي الى أبعد حد.

الفيلسوف : وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ؟ وقد نطق الفيلسوف هذا القول بلهجة التوكيد. ذلك لأنه كان يقصد الى كسب رضى المستمعين اذا لم يستطع إقناعهم الاقناع كله.

ثم استطرد يقول : إنّ الذي يهزّ مشاعرنا كلما عند التحدث عن العظمة هي الاعمال الانسانية. إننا نرى صورة أنفسنا منعكسة في صورهم ذلك لأن كل واحد منّا يجدّ ويسعى لمثل ما جدّوا وسعوا. ولكن مع الفارق في القياس. فعامل المصعد عندما يقرأ كيف ارتقى « لنكولن » يعلم أنه سوف يصير مدير فندق في بضع سنين

التاجر : إننا بصفة عامة نرى صورنا منعكسة في صور معاصرينا فمن من زعماء عصرنا تحسبه عظيماً ؟

الفيلسوف : لست أستطيع الجواب عن هذا قبل عام ٢٠٠٠ عندما نعود الى هذا الشاطىء ذلك لأن المحيط الهادىء لن يناله التغيير إلاّ قليلاً فتشابك العقول اليوم يجعل

من الصعب أن تفسّر أعمال كل فرد تفسيراً نستريح اليه.

دولي (ضاحكاً): ولماذا تولاك الحرص والحذر بغتةً فقلتَ كلمة صريحةً ولا تخف! أتحسب «تشرتشل» رجلاً عظيماً؟

الفيلسوف: لن يستطيع أحد الجواب قبل أن يعرف أولاً كل الأسانيد المدعمة التي لاتزال سرًّا غامضاً وأن يضمّ اليها أوراق «تشرتشل» الخاصة وكذلك قبل أن يعرف الموتة التي سوف يموتها

فإن حياةً بغير فصل ختامي إنما هي جزء من حياة لاحياةً كاملة، مثلها في ذلك مثل تمثال لم يتمّ نحته أو مثل رواية لم تتم فصولها، فمن يعرف كيف كان يسلك «ولسن» في عداد العظماء لو أنّه كان قد قتل في نوفمبر من عام ١٩١٨؟

العازفة: إذن أنت تعتبر الموت جزءاً من الحياة؟

— بل اعتبر الموت أكثر من ذلك إنّه المفتاح لفهم حياة الرجل

التاجر: (في لهجة الشك): إذن فالأمر عندك أن كل شهيد يمكن أن يكون رجلاً عظيماً

الفيلسوف: كلاّ! إنّ المسيح لم يكن عظيماً بسبب صلبه وإلاّ — لو صحّ هذا — لكان ضحايا النازي الأبرياء كلهم عظماء

إنّ المسيح كان عظيماً ذلك لأنه كان يعظ الناس ويهديهم الى سواء السبيل، وليس ذلك فحسب، بل لأنه كان يعمل بما يوصي به. وقد ضحّى في سبيل ذلك بحياته. وقد يكون سقراط أعظم تضحية ذلك لأنه مات بمحض ارادته. ليضرب للبشرية الأمثال. وقد كان سقراط يستطيع أن ينجو. أما المسيح فلم يكن له خيار في الأمر. وكذلك كان قتل «الرئيس لنكولن» في الساعة التي كسب فيها الحرب سبباً في كسب قلوب قومه وقلوب خراديهم.

التاجر: وماذا ترى في غاندي؟ أليس هو أيضاً يشبه الى حدّ ما نبيًّا كعيسى ومحرراً «كلنكولن»

— نعم هو كذلك. ولكنه لا يزال حيًّا (كان ذلك بالطبع قبل قتل غاندي) فاذا قدر عليه أن يموت في أثناء نوبة من نوبات اضرابه عن الطعام فان الجنود قد يتخذونه الهاً.

ولكنه لو ساء حظه فتولى رئاسة الحكومة فانه سوف يكون باعثاً خيبة الأمل عند كثير من أتباعه ومريديه . فعاندي يراه الناس في خارج الهند عظيماً ذلك لأنه ابتدع قاعدة تمت إلى الدين بصلة قوية وهي قاعدة « عدم العنف » وهو بسبب هذه النظرية يسلك في عداد الرجال « العظماء »

دوللي : ولماذا لا تتكلم إلاّ عن الرجال كأنّ ليس بين النساء عظيمات ؟

الفيلسوف : ذلك لأن العظمة بين النساء هي أقل وأندر وهي أكثر تعقيداً من العظمة عند الرجال . إن عظيمات النساء في التاريخ قد روعي في قدر عظمتهن أنهن نساء، فالجنس هو الذي أوحى بالحكم لهن بالعظمة وليس كذلك الحال ـ في الأعم الأغلب ـ مع العبقريين من الرجال، فالملكات وحظايا الملوك اللائي نعرفهن خير أمثلة على هذا القول « فكاترين » الكبرى قد تأثرت بحياتها الجنسية أكثر مما تأثر بها عدوها «فردريك الأكبر» ولو أنه كان ذا شذوذ جنسي وكان لذلك أكثر تأثراً بالمسألة الجنسية أكثر من الرجل العادي

المدرّسة : ألا ترى أنه كانت هناك بضع نساء عظيمات من المجاهدات ؟

الفيلسوف : إنك تجدين منهن في الأمم التي تغلب عليها العاطفة كالفرنسيين والروسيين وأنك لن تجدي بين الانجليز الكسونيين فتاة « كجان دارك » أو « شارلوت كورداي »

وإني لتعجبني المرأة التي ترفع السلاح . أو تحمل السيف دفاعاً عن الحرية أكثر مما يعجبني الرجل . ذلك لأن نصيبها من العذاب في ذلك يكون ضعفين . وذلك لأن حمل السلاح ليس من تقاليد النساء .

وهذا القول يذكر القارئ العربي بقول الشاعر :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذيول

العازفة : وأولئك النسوة اللائي كن عظيمات في فنون الحب ؟

فتبسم الفيلسوف وقال : إن المرأتين اللتين قد فتنتا قومهما وذراريهما أكثر من غيرهما (وهما « كليوبطره » ـ وهي أشهر من أن تعرف ـ « ولينو دي لينكلو » ـ ١٦٢٠ ـ ١٧٠٥ ـ وهي التي فتنت « ريشيليو » بذكائها وجمالها) قد كان الحب الدافع لهما والموحي إليهما . وقد كان بين النساء بضع شاعرات وبضع مصورات . ولكنهن لن يمكن

أن تصح المقارنة بينهن وبين معاصريهن من الرجال .

فقالت دولفي لصاحبتها : أرأيت كيف يجعلنا في المقام الثاني ؟

. الفيلسوف (ضاحكاً) : بل بالعكس فإنكن في المقام الأول ! ذلك لأن معظم النساء يعرفن الطريق التي تشعر الناس بقوة نفوذهن وعظم سلطانهن . وهو ما لا يستطيعه إلا القليل من الرجال . ولذلك فإن النساء لسن بحاجة الى العظمة أكثر من حاجتهن الى الجمال والفتنة والجاذبية . ففي كل العصور كان النساء هن الملهمات للرجال . ولكننا لا نعرف إلا القليل مما أوحين به . ذلك لأنهن يعملن أعمالهن خلف أبواب مقفلة . ولم يتسرب إلينا إلا بضع قصاصات مما أفضين به — في ساعة من ساعات الزق — لأصحابهن . أو مما بحن به بدافع من غرورهن .

فيوم سخت « كليوباترة » لنفسها أن تنطوي في بساط . وأن تحمل الى قيصر الذي غزا بلادها . وفتح عاصمة ملكها . وأن تخرج من بين طيات البساط . إنما كان هذا منها لمحة من لمحات عبقريتها . وتلك اللمحة هي عندي بمنزلة اكتشاف « كولومبس » لأميركا .

والمرأة لم تكن حقاً عظيمة في يوم من الأيام إلا في ميدان حياتها الخاصة . ولهذا كان من الصعب جداً أن نعد النساء العظيمات .

ولذلك فلست تجدهن عادة إلا في الروايات والصور حيث يقوم واحد من الفنانين — بوحي من عبقريته — فيخلدهن .

إن صوت المرأة الحريد الملهم لا يسمع إلا في الخفاء .

* * *

ثم مالت الغارقة على الكمان أن مالت على وليدها . وهي تشير الى الشمس الغاربة وتقول : انظر . إن المساء قد أقبل . وإن الشمس العظيمة لتحيينا تحية الوداع .

فمد الطفل ذراعيه نحو النور وهتف قائلاً : امنعوا الشمس أن تغيب !

(من الانجليزية) مبارك بن لهيم

الكيمياء

والطب

(هذا لك في تلك الليالي الهادئة بالقناطر والنوافذ حيث يتلاعب ضياء
المجرات بجداوله وبحوته . . . يكبر البلسم الشافي لجروح البشر ؟ !)

﴿ من تاريخ الكيمياء ﴾ إذا نحن تصفحنا سجل الأيام رأينا أن تاريخ الكيمياء يمكن تقسيمه إلى ثلاث مراحل . . . فالمرحلة الأولى كانت عصر السيمياء « حين كان علم الكيمياء مرادفاً للسموم والشعوذة . . وقد بدأت السيمياء في مصر القديمة وحين انتشر العرب الغزاة في أفريقيا الشمالية أخذوا عن مصر معرفتها ووسعوا آفاقها . . وفي القرنين العاشر والحادي عشر حين كانت معظم بلدان أوربا تغط في نوم عميق كان العرب ينشئون الجامعات في أسبانيا وأفريقيا .

وكانت المرحلة الثانية عبارة عن تطبيق الكيمياء في الطب فبإجراء التجارب للبحث عن أدوية وعقاقير جديدة ورؤية أثرها على الجسم الإنساني بدأت الكيمياء الحقيقية تأخذ مكانها في الظهور ؟ فالبحث عن الدواء والتطبيب كان له أثر وأي أثر في إنشاء علم الكيمياء الحقيقي ومن تلك الآثار القديمة نجد السيدلي يطلق على نفسه كيميائي .

أما الطور الثالث فهو دراسة الكيمياء كعلم مستقل بذاته .

﴿ الرهبان والطب ﴾ : وفي أوربا خلال العصور الوسطى كان أغلب العمل الطبي في أيدي الرهبان ما عدا الجراحة التي تركت مزاولتها للحلاقين . . وما كان للرهبان أن يقربوها فهي محرمة لما يراق فيها من دم . . وبذا فقد وجهوا عنايتهم الى تحضير أدوية من الأعشاب الطبية . وقد أنتج هذا أول فرق بين الجراح والطبيب الذي استمر حتى القرن التاسع عشر .

﴿ أول صيدلية ﴾ : وأول صيدلية بالمعنى القديم أنشئت في لندن سنة ألف وثلاثمائة وخمس وأربعين وبدأت الأدوية الطبية المحضرة من الأعشاب تأخذ طريقها إلى

الظهور . وفي سنة ألف وخمسمائة وثلاثين ذاعت شهرة طبيب يدعى فيلبس أورالس نيوفراتس الذي كان مشهوراً باسم باراسيليس والذي ترك وصفات بذية جد غريبة في كتاباته ومذكراته .

وأعقب اكتشاف الاسبان والبرتغال لجنوبي أمريكا ظهور أدوية جديدة من أهمها الدواء الذي كان يطلق عليه اسم « قلف بيروفيان » . وفي سنة ألف وثمانمائة وأربعة وعشرين فصلت المادة الفعالة من هذا الدواء الطبيعي وسميت « كينين » التي استعملت في علاج الملاريا وقد حضرت اليوم هذه المادة في المعمل .

﴿ الكيمياء كعلم مستقل ﴾ : وفي أوائل القرن التاسع عشر اكتشف أحد الكيميائيين في باريس عنصر اليود وبذا قلبت الصورة وبدأت الكيمياء كعلم مستقل تقدم للصيدلي أدوية جديدة . وما وافى الثلث الأول من هذا القرن على نهايته حتى كانت هناك مصانع للأدوية تصنع النشادر وحامض الخليك والأثير وكلوريد الزئبقوز وأملاح البزموت واليود. ثم نجح العالم روبج في تحضير حامض الكربوليك (الفنيك) وكان لهذا أهمية كبرى فيما بعد إذ كان أول مطهر استخدمه الطبيب الاشهر « ليستر » في الجراحة .

﴿ إصابات التسمم ﴾ : ولا يمكننا اليوم أن نتصور الفزع الأكبر من إصابات التسمم في العمليات الجراحية في الأيام الأولى . حتى منتصف القرن التاسع عشر إذ كان الموت من جرى التسمم هو النتيجة المحتومة لعمليات الجراحية الكبيرة . ففي خلال الحروب كانت عشرون في المائة من عمليات البتر تصاب بالغنغرينة الغازية مسببة الموت . وأثناء حصار باريس في الحرب السبعينية كان كل جرح تقريباً يصاب بالتسمم، وما كان الجراح يعمله ليؤدي الى تحسين الحال لعدم توافر عوامل النظافة التامة .

ثم حدث تطور . فان ليستر متتبعاً لخطوات باستير بدأ يستعمل المواد المطهرة فكان يضع في حجرة العمليات وعاء يحوي مزيجاً من حامض الكربوليك والماء في حالة غليان فيتصاعد البخار في الجو ويطهره من الميكروبات مما كان له أثر في تقليل إصابات التسمم في جروح العمليات الى مدى بعيد .

﴿ مطهرات أخرى ﴾ : ولم يلبث أن ظهرت مطهرات جديدة مثل فوق اكسيد

أرختُ ابن حمراء العجان فعرّدت فقارعته الوُسطى وان كان دانيا

ثم يجري الشر الى مداه يثور أواره ، وقد أشرت الى بعضه . ويخوضه الاخطل بعد ما عاش صدر عمره لا يأبه له ، وينحاز الى الفرزدق . فيسمع الناس لثلاثتهم ما شئت من إسفاف لا ضابط له من حياء .

٥

تلك الصفحة ، وإن اتصلت في الحين بعد الحين ببعض ما تُريد الشعراء له ، إلاّ أنك تجدها هنا أمراً خرج الى المباءة ، وملك زمامه الجهل ، وكاد يكون إشباعاً لشهوات ، ومن فيض النزوات .

ونحن — وإن رأينا الإسراف فيه قد حجز القوم عن الالتفات الى غيره بعض الشيء — لا نطلب مثله سبباً من أسباب دراستنا هنا . فما كان كما قلنا — جلُّهُ الذود عن حرمات والدفاع عن حوزات . ولكنه كان للشر الذي صيغت منه الطبائع . فلْندعه لمن شاء أن يعرف الأخطل والفرزدق وجريراً شتّامين عيّابين . فتلك دراسة تجلو لمن أحب أن يعرف النفوس كيف تخلس للخير وكيف يغلبها الشر .

٥

وما حدّثناك عن هؤلاء الثلاثة ، ونحن نعرض عليك صورهم وألوان قولهم ، إلاّ لنعود إليهم هنا معقبين . فثلاثتهم كما رأيت عاشوا في ظل الدولة الأموية منتصرين لها .

أما عن الأخطل فقد عرفت كيف بدأ . وأنه قد أُقحم على الأمر إقحاماً — وما أظن الأخطل كان يحمّل نفسه ، وهو من تعلم ، أن يهجو الأنصار ، وما أرادها شاعر مسلم . وقد لقي بسببها شيئاً حين أمكن منه معاوية ، لكنه وجد يَدَ يزيد فقوي بها وتبدّل خوفه أمناً .

عندما رأى الأخطل أن يختار مكانه القائم ، وكان قومه إليه ، والدولة الأموية مع بدئها تنبئ الحوادث أن الأمور إليها . فقضى يمكّن لنفسه لدى سادتهم ، يمدحهم ويمدح من اتصل ، ويهوّن من شأن أعدائهم والخارجين عليهم .

غير إنا نراه كان لا يقول برأي حين قال في الخلاف القائم ، وأنه جرى على رأي المسلمين المنتصرين لبني أمية :

فالله لم يرض عن آل الزبير ولا ... عن قيس غيلان حبًّا طال ما خربوا
يعاظمون أبا العاصي وهم نفرٌ ... في هامة من قريش دونها شذب

ثم يقول :

هم سعوا لابن عفان الإمام وهم ... بعد الشياس مروّها تحت احتلبوا
حربًا أصاب بني العوّام جانبها ... بعدًا لمن أكلته النار والحطب

ويقول :

هم الذين أجاب الله دعوتهم ... لما تلاقت نواصي الخيل فاجتلدوا
ليست تنال أكف الناس بسطتهم ... وليس ينقض مكرُ الناس ما عقدوا
ويوم صفّين والأبصار خاشعة ... أمدّهم اذ دعوا من ربهم مدد
على الألى قتلوا عثمان مظلمة ... لم ينهم نشدٌ عنه وقد نشدوا
قسمٌ قرّت عيون الثائرين به ... وأدركوا كل ثبل عنده قود
فلم تزل فيلق خضراء تحطمهم ... تسعى ابن عفان حتى أفرخ الصيد

(أفرخ : سكن . والصيد : الكبر)

وأنتم أهل بيت لا يوازنهم ... بيت إذا عُدّت الأحساب والعُدد
وإن سألت قريشًا عن ذوائبها ... فهم أوائلها الأعلون والسند
والمسلمون بخير ما بقيت لهم ... وليس بعدك خير حين تفتقد

مثل هذا قال الأخطل في الأمويين . وما نريد أن نجمع له كل ما قال . ولكنا نجتزئ منه بما يدلنا على ما أراد . أراد الأخطل لنفسه صلة يقوى بها ويحمي ذويه من أن يُجار عليهم أو ينال منهم .

هذا هو الأخطل حين بدأ . ورأى قومه وصنمهم بقيس ، وكانت قيس حربًا على بني مروان . فعدا مقامه الأول إلى مقام المشارك في التمكين للدولة برماح قومه وألسنتهم فيقول :

لقد علمت تلك القبائل أننا ... مصاليت جذّامون آخية الشعب

فان تك حرب ابنيّ زرارة واضعت فقد عذرتنا في كلاب وفي كعب
وفي الحُسَّب من أفناء قيس كأنهم بمنعرج الثرثار خُشب على خُشب
وهنّ أذقنّ الموت عجزاً بن ظالم بماضية بين الشراسف والقُصب
لعمري لقد لاقت سُليمٌ وعامرٌ على جانب الثرثار راغية البكر

وقد ذكرنا لك شيئاً في مثله قبلُ . وتنتهي الأمور بالأخطل إلى ما كان يخشى . فاذا الوليد يجحود، ولم يجد الأخطل غير أن يقبع ويقنع بأن يقول :

ولقد علمتم وإن أصبحت نائيكم نصحي قديماً وفعلي غير متّهم

ثم إذا فدحته وقومه المغارم يقول :

وعضّ الدهر والأيام حتى تغير بعدك الشّعر الجديد

* * *

يقولون وَفَى الأخطل لسادته في الرخاء والشدّة . وأقول لقد اختار الأخطل النفع وشراه بلسانه . فلما فقده لم يملك أن يقول على المنع كما قال على الاعطاء . وكان حين اشترى له ولقومه حكيماً ، ولكنه لم يكن حين حُرم على شيء من الجرأة والشجاعة . فقنع بتلك الأبيات القليلة وكتم ما يشكو وما يضيره .

كنا نريد أن نراه مع الوفاء لسادته يقول فيما نابه في البأساء ، بقدر ما قال عندما أصاب في النعماء .

لِمَ لم نسمعه يتجه إلى الوليد يحدّثه مفيضاً عما أضاره وآذى قومه، ولِمَ نراه انكسر وتخاذل واختفت كلماته الأولى حين كان يخاطب عبد الملك فيُدلي ببلاء قومه ، وبدا الأخطل غير الأخطل في خطابه للوليد حين يقول :

وقد حلفتُ يميناً غير كاذبة بالله رب ستور البيت ذي الحُجب
وكل موقدِ بذر كان يحملهُ مضرَّجٌ بدماء البُدن مُختضب
إن الوليد أمين الله أنقذني وكان حصناً إلى منجاته هربي
أتيتهُ وهمومي غير نائمةٍ أخا الحذار شريد القتل والهرَب
فآمن النفسَ ما تخشى وموّلها فَذَمّ المواهب من أنواله الرَّغَب

(القدم : الكثرة والرغب : الكثيرة الواسعة)

وهم ذرى عبد شمس في اروماتها وهم صميمهمُ ليسوا من الشذب
وكان ذلك مقسوماً لأوّلهم وراثةً ورثوها عن أبٍ فأب

وإلى هذا قوله :

حلفت بمن تساق له الهدايا ومن حلّت بكعبته النذورُ
لقد ولدت جذيمة من قريش فتاها حين تحزبها الأمور
وأكرمها مواطن حين تبلى ضرائبها وتختصب النحور
وقد علمت أمية أن ضغني اليها والعداةُ لها هريرُ

(ضغني ، أي ميل وشوق)

وأني ما حييت على هواها وأني بالمغيب لها نصورُ
فمن يكُ قاطناً قرناً فاني لفضل بني أبي العاصي شكور
ولكني أهاب وارتجيكم ويأتيني عن الأسد الزئير

ثم قولهُ :

لقد حلفتُ بما أسرى الحجيج له والناذرين دماء البُدْن في الحرَم
لولا الوليد وأسبابٌ تناولني منّي يوم اجتماع الناس بالسَّلم

(السلم : موضع)

إذاً لكنت كمن أودى ووداه أهلُ القرابة بين اللحد والرَّجم

(وداه : غيبه)

أهلي فداؤك يومَ المحرمون بها مُقاسَمُ المال أو مُنضٍ على ألم
إن ابن مروان أسقاني على ظمإ بسَجْل لا طاتم رِيّاً ولا خَذِم

(السجل : الدلو . والطاتم : المملوء بالماء . والخذم : المقطوع)

الى أن يقول :

فهم هنالك خير الناس كلهم عند البلاء وأصبرهم على الكرم
لولا بلاؤكم في غير واحدة اذاً لمستُ مقام الخائف الزَّرم

(الزرم : القطع)

أتعتكم يوم أدعو في مُوَدَّأة لولاكمُ شاع لحي عندها ودمي

(المودأة الفارة)

أتستطيب هذا من شاعر تريده لرسالة ؟ وكم هو مفيد على هذا الاسراف في المديح والدعاء ؟

وقد يقول قائل : أشيرُ بغير هذا إن ملكتَه . ونكاد نملك الجواب حين نقول :

قد تؤمن أن الأخطل رأى الخير في أن يكون الأمر الى بني أمية ، وقد نراه رجا لآله الدَّعة حين وصل حبلهم بحبل الأمويين . فكان عليه مع هذا الرأي أن ينتصر له ، ولذلك الرجاء أن يمكّن لأسبابه . فقال يُمزّ بقوله ولاة الحق ويُهوّن من خصومهم ، وأثنى على من رجا لتزمه عندهم خيراً فأطاب .

نحن لا نلقاه هنا ، ولكنا نلقاه حين خذله الوليد وضمطه ماله وما لآله ونسي سابقتهم عنده . فوقف له الأخطل يستغفر عن غير ذنب ، ويعتذر دون جريرة ، في قول الخانع ، وذلة المستخذي . طامعاً أن ينصفه إسرافه ويردّ عليه ما فقده إغلاؤه .

وكان الأخطل فيما يقال محبّبا لما يدين به . وقد رأيت ما ناله مع عشيرته من حرج ، ورأينا نحن أن الوليد هدم للنصارى كنيسة . وارتفع لسان جرير يهنىء الوليد بما فعل ، أو قل يكيد للأخطل فيما يقول :

إن الكنيسة كان هدم بنائها قسراً فكان هزيمة للأخرم

فما عرض الأخطل لجرير في هذه ، ولا رفع صوته يبصر الوليد بمغبّة ما فعل ، ولا قال في الحرج إلاّ بلسان المستعتب الوجل .

إن قلت : خاف البطش والتنكيل . قلنا : قد نفقد شجاعة الداعي ، وقوّة جنانه .

وإن قلت : أراد أن يأخذ اللين الى غايته مطية . قلنا : فرّق لنا بين اللين والضعف .

ثم لنعد الى المدح نتعرّفه ، وأحب أن أقفك على رأيي فيه . فأنا أعد المدح يجزي به الشاعر ، لا ليُجزى عليه . وفرق عندي بين كلمة أشكر بها وأخرى أسأل فيها الناس برًّا وعونًا .

وأين كان الأخطل من الرأيين . لقد حمّله يزيد هجاء الأنصار ، ففقرناها له وقلنا :

شاعر يريد أن يهيّىء له ولقومه ويختار . وأمكن منه معاوية وكاد الأنصار ينالون منه ، فاستنقذه يزيد فشكره . فقلنا : واجب عليه أداؤه . وجرى على الأمويين يمدحهم ملتفتاً لقومه . فقلنا : أصاب حين عدّد لقومه مآثرهم .

ومالت به مائلة حين سلك بالمدح غير مسلكه وجعل منه مطيّة السائل أو وسيلة المستجدي . ثم خلص شعره للمدح بقوله في غير الملوك والملوك ، متخطياً القصد في الشكر الى الاسراف فيه . أنذكر قوله إلى شقراء وزوجها وكانا أكرماه وأنزلاه :

لعمرك ما لاقيت يوم معيشة من الدهر إلاّ يوم شقراء أقصرُ
حوارية لا يقرب الذم بيتها مطهرة يأوي إليها مطهر
وبيتٌ كظهر الفيل أكثر حشوه أباريقه والشارب المتقطر

فقلنا : زلّت بالأخطل القدم .

ما أردنا أن يكفر الناس بالنعم ، وأن يجحدوا الأيادي . وإنما أردنا أن يصان الشعر عن الابتذال . وما على الشاعر ، وهو من الناس ، أن يشكر بلسانهم في كلمة من كلامهم لا في بيت يسير عنه ويُبعد عليه ، يخص فيه المطعمين بالكثير مما لا ينهضون له .

وما على الشاعر ألاّ يمدح إلاّ مجازياً . فذلك أعف له وأدعى إلى أن يُسبق إليه .

وعلى الشاعر أن يقصد فيما يقول جانب الحق والنصف والقصد . فالناس على نهجه وحيث اتجه .

وإذ قد أخذنا في المدح فبيّنا الرأي فيه فنحن إلى وقفة قصيرة مع الفرزدق وجرير نتم بها الحديث عن الثلاثة .

يكاد الشاعران يجمعهما رَسَن وتؤلف بينهما غاية ، لا يصرفك عن ذلك تلك الهائجة التي هاجت بينهما ، فما خلقت فيهما غير شر ولا أسمعتنا إلاّ إخاشاً شُغل الناس به حيناً ولا يزالون يشغلون ، فريقٌ يرى فيه زاداً يقوى به إن ضرمت ضارمة ، وفريق يسمعه أو يقرؤه لنساء ، وهم الذين يريدون ألسنتهم على العفة وأنفسهم على النقاء .

وليس شيء غير الهجاء فارقاً سوى تلك البارقة التي ومضت بُرَيْهة ثم اختفت . نعني علوية الفرزدق التي لفظها أياتاً ثم تاب عنها في قصائد .

وبعد هذا فالشاعران مدّاحان وقفا لملوك بني أمية بالمرصاد يمدحان من استخلف ويرثيان من مات . وان شئت فقل انهما خلعا رأيهما وهواهما وراءهما ، وجرى في رأي الأمويين وهواهم . تحس ذلك في موقف الفرزدق من آل المهلب ، فهم عند قوله :

لأمدحنّ بني المهلب مدحة غراء ظاهرة على الأشعار
مثل النجوم أمامها قمر لها يجلو الدجى ويضيء ليل الساري
ورثوا الطعان عن المهلب والقرى وخلائقاً كتدفق الانهار

ما رضي عنهم الأمويون وبسوا لهم . فاذا استحال رضى سادته سخطاً ، سخط هو الآخر وأسرع يقول في يزيد بن عبد الملك بعد صلب يزيد بن المهلب :

علّمتم الناس بالحق الذي لكمُ عليهمُ وبضرب غير تعذير
لقد عجبت من الأزدي جاء به يقوده للمنايا حيّنَ معزور
حتى رآه عبادُ الله في دَقَلٍ منكّساً وهو مقرونٌ بخنزير

(يشير الى ما كان حين صلب يزيد بن المهلب وطق منه خنزير وزق خمر)

•

وتراه راضياً عن عمر بن هبيرة ما ضمن ابن هبيرة الرضى عند أوليائه ، فيقول فيه الفرزدق :

لقد علمت وعلمُ المرء أصدقه من عنده بالذي قد قاله الخبر
أن ليس يجزيء أمر المشرقين معاً بعد ابن يوسف إلاّ حية ذكر
أغر يستمطر الهُلاكَ نائله في راحتيه الدم المعبوط والمطر
وكم سماك من الآباء من ملك به لذبيان كان الورد والصدر
ألت رجالي بأرضي انني فرق من واسط والذي تلقاه تنتظر

ثم تعبس الوجود فيعبس وجه الفرزدق ويجد قلباً ناسياً ولساناً طيعاً فيقول فيه :

إن الفرزدق لا يشفيه من قرم أطايب العيش حتى ينهش الذكرا
لو أنها ضربت في القبر ميتها بنو فزارة بالجُردان لانتشرا
لو أنها منعت منه وقد طبخت أمُّ الفزاري أير العير لانحجرا

وترى جريراً مع هذا النهج إلاّ ما تنكر فيه الفرزدق لمن صفا له ، يفرط في المدح حتى لتكاد تحس أن قلبه بالممدوح عالق، وان هوى ضمه إليه، فيمضي الممدوح وما جفّ تراب قبره ، ولا جفّ معه مداد ما قيل فيه ، وإذا بجرير على باب الخلف في مثل ما كان مع السلف .

ويرتّب الرجل مع هذا أن يكون صاحب رأي ، فهو مع ما عددنا عليه ، لم يكن مطعوناً عليه نزعته ، ولم يوزّع هواه مع هوى غيره .

ونحسب أن انصراف شغله أن يلتف حول فكرة، وأن مدحه هذا كان عدّة له في هجائه. ولعله أراد أن يقوي بممدوحيه ويعزّبهم على خصمه .

وقد ترى رأينا حين تسمع أن ثلثي شعر جرير كان في الهجاء ، والثلث الباقي كان للمدح والفخر والنسيب والوصف والعتاب والشكوى والرثاء .

وأنه هجا الأخطل بما يدنو من خمس وعشرين قصيدة ، وخصّ الفرزدق بما يصل إلى المائة .

هذا بال بليّة الخصومة فعاش لها ، ولم يصف إلاّ في القليل لهذا الذي حدّثناك عنه .

وبعد فما كان أحوج هذا العصر الى غير هؤلاء من الشعراء ، ينصحون ولا يمدحون ويبشّرون ولا يقرظون ، ويرون ثم يحكمون بشجاعة على القول .

أما هذا النفر الذين تحتى بهم الأمم ، ويصاب بهم السادة ، والذين لا كمّ لهم إلاّ أن يزينوا البطن ، ويجملوا الكآبة ، ويتدجرجوا سوارات الغضب . فما أشقى الأزمنة بهم .

أحسب لو أن الألسنة التي زينت للأمويين إنكاءهم في خصومهم ملكت أن تخفف من غلوائهم وتردهم الى حلم ما باء الأمويون الى نكال تجرّعوه غصصاً على أيدي العباسيين حين انتهى إليهم الأمر ، ولما سمعوها مُرّة على لسان سديف يخاطب السفاح :

جرّد السيف وارفع العفو حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّا

أبو تمام والبحتري

(١٩٢ — ٢٣١) — (٢٠٦ — ٢٨٤)

هذان ديوانان لشاعرينا : أبي تمام حبيب بن أوس ، والبحتري الوليد بن عبيد بن يحيى . وكلا الرجلين طائي . أدرك ثانيهما أولهما وما أن أنشده من شعره حتى قال له :

قد نعيتني إلى قومي ، فما يخلدني أن أعيش وقد شبّ في طيء مثلك. ويروون أن أبا تمام لم يُمتّع بعدها غير عام .

فأنت ترى أن الحياتين متصلتان ، أو أن حياة البحتري امتداد لحياة أبي تمام ، فما ودّع شاعر حتى قام في إثره شاعر ، على الطيّ والغرار ، بدأ من حيث انتهى سلفه ، ومضى ، وكأنه الصدى ، يصل ما انقطع . ونحن في تفصيل ذلك آخذون .

فقد نشأ أبو تمام يمدح المأمون [1] أول خليفة لقي . بقصيدته التي يقول فيها :

الله أكبر جاء أكبر من جرت ... تتعثر في مكنه الأوهامُ

من لا يحيط الواصفون بوصفه ... حتى يقولوا وصفُه إلهام

من شرّد الإعدامَ عن أوطانه ... بالبذل حتى استطرف الإعدام

(الإعدام : الفقر . واستطرف : صار مالا طريفاً ، أي جديداً) .

وتكفّل الأيتامَ عن آبائهم ... حتى وددنا أنّنا أيتام

يتجنب الآثامَ ثم يخافها ... فكأنما حسناته آثام

إن المكارم للخليفة لم تزل ... والله يعلم ذاك والأقوام

كتبت له ولأوّليه قبله ... في اللوح حتى جفّت الأقلام

---

(١) ولي للمأمون من سنة ١٩٨ — ٢١٨ هـ

فبنو أبيك على تفاوت قدره فيهم وإنهم هم الأعلام
متواطئو عقبيك في طلب العلا والمجد تحت تستوي الأقدام

يقضي المأمون بهذه وأبو تمام لم يسدُّ نصف العقد الثالث إلاَّ بقليل . ويخلفه المعتصم ؛ ويمتد حكمه الى سنة ٢٢٧ . وتمر تلك السنين الثمانية ، بفتوح ثمانية فيجد أبو تمام مجال القول فسيحاً . فهو هنا يهنئه بفتح عمورية :

السيف أصدق إنباءً من الكتب في حدِّه الحد بين الجِد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخطب
فتحٌ تفتّحُ أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يومَ وقعة عموريّة انصرفت عنك المنى حفلاً معسولة الحلب

(سغلا : بجشة) .

ما ربع مية معموراً يطيف به غيلان أبهى رُبى من ربعها الجرَب
خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تُنال إلاَّ على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رَحم موصولة أو زمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب

وهو هنا يهنئه بإحراق الأفشين :

الحق أبلج والسيوف عوارٍ فحذار من أسد العرين حذار
ملكٌ غدا جارَ الخلافة منكمُ والله قد أوصى بحفظ الجار

. . . . . .

لله من نار رأيتُ ضياءها ضاق الفضاء به على النظّار
منصوبةٍ رُفعت لأعظم مشرك ما كان يرفع ضوءها للساري
صلّى لها حيًّا وكان وقودَها ميتاً ويصلاها مع الفجّار

يا مشهداً صدرت بفرحته الى أمصارها القصوى بنو الأمصار
رمقوا أمالي جذعه فكأنما وجدوا الهلال عشية الإفطار
واستنشقوا منه قُتاراً نَشْرُه من عنبر ذفر ومسك داري

(داري : نسبة الى داريّن بلد مصروفة بالك)

فالأرض داريٌّ أقفرت ما لم يكن من هاشم ربٌّ لتلك الدار
سور القُران الغُرُّ فيكم أُنزلت ولكم تصاغ محاسن الأشعار

*

وهو في هذه يهنئه بأخذ بابك :

آلت أمور الشرك شرَّ مآلِ وأقرَّ بعد تخبّط وخبال

(التخبط : التكبر)

غضب الخليفة للخلافة غضبة رخصت لها المهجات وهي غوالِ
فلأزربيجان اختيال بعد ما كانت معرَّس عبرة ونكال
أطلقتها من كيده وكأنما كانت له معقولةً بعقال

يا يوم أرشق كنت رشق منيّة للخرميّة صائبَ الآجال
أسرى بنو الاسلام فيه وأوجلوا بقلوب أُسد في صدور رجال
ما طال بَغْيٌ قطُّ إلاَّ غادرت غلواؤه الأعمارُ غير طوال
فاسلم أمير المؤمنين لأمة أبدلتها الأمراع بالإمحال
أمسى بك الاسلام بدراً بعد ما مُحقت بشاشته محاق هلال
ألبستهُ أيامكَ الغُرَّ التي أيامُ غيرك عندهنَّ ليالِ

هذا سوى مدائح خصه بها ، أطنب فيها وأشاد .

*

ويخلف الواثقُ المعتصمَ عامَ وفاته سنة ٢٢٧ فيمضي إليه أبو تمام يهنئه ويعزيه بأبيه:

ما للدموع تروم كل مَرام والجفن تأكلُ هجعةٍ ومنامِ

يا تربةَ المعصوم تُربُك مودَع ماءَ الحياةِ وقاتلَ الإعدامِ
هدمت صروف الدهر أطول حائط ضُربت دعائمه على الإسلامِ
ما دام هارونُ الخليفةَ فالهُدى في غبطةٍ موصولةٍ بدوامِ
إنا رحلنا والثقين بوائق بالله شمس ضحى وبدر تمامِ
ما أحسب القمر المنير إذا بدا بدراً بأضوأ منك في الأوهامِ
إن الخلافة أصبحت حجراتها ضُربت على ضخم العطاء هامِ

وغير المأمون والمعتصم والواثق أمراء ووزراء وقوّاد وسادة ، أكاد أحصي منهم ثلاثين ؛ منهم أحمد بن المعتصم ، وخالد بن يزيد الشيباني ، والحسن بن سهل ، وأبو سعيد الثغري ، وابنا وهب : الحسن وسليمان ، ومحمد بن الهيثم ، وأحمد بن أبي دواد ، والرافعي موسى بن ابراهيم .

قال في بعضهم ، مادحاً ومعاتباً ما يُربي على الأربعين قصيدة ، وأظنه أبا سعيد الثغري . وفرّق الباقي من مدائحه بين بقيتهم وفق ميله وهواه .

*

ثم هو بعد هذا له مراثيه التي لم يبخل بها على الكثرة ممن وصلته بهم صلة .

وتجيء بعد مراثيه أهاجيه ، وما بنا حاجة إلى أن نقف عندها طويلاً . وما يعنينا منها أن الرجل مدح مَن هجا ، وهجا بعض من مدح ، وما هو بمُليم . وحياة كل انسان مائلة بمثل هذا ، وأبو تمام منا معشر الناس . ولكنه من النفر الممدود عليهم كلامهم . وقد كان في مكنته أن يعفي دون هذا ، فيحبس مديحه عمن هجا ، وهجاءه عمن مدح ، ولكنه لم يفعل .

وقد مرّ بك حديث أبياته في إحراق الأفشين ، ويجمل بنا أن نورد لك بعض قوله في مدحه :

بذّ الجلاد البُذّ فهو دفينُ ما إن به إلاّ الوحوش قطينُ
(البذ : موضع)
لم يقرهذا السيف هذا الصبر في هيجاء إلاّ عزّ هذا الدين

قد كان عذرة مغرب فافتضها ... بالسيف طفل المشرق الأفشين
ما نال ما قد نال فرعون ولا ... هامان في الدنيا ولا قارون
فليشكر الاسلام ما أوليته ... والله عنه بالوفاء ضمين

وإن لم يكن قد مرّ بك شيء مما مدح به مالك بن طوق ، فسنذكرك هنا بقوله فيه :

يا مالك ابن المالكين ولم تزل ... تدعى ليومي نائل وعقاب

كي نعقب عليه بهجائه له :

فرحلت منقطع القرينة لم ... أرتع على رسم ولا مطلل
متمسكاً من مالك بقرى ... ضمنت وسائلها عن الأمل
فلأغربنّ به سوائم سر ... ح الشعر من رجز ومن رمل
متوجهاً لهجائه أبداً ... وهجاؤه أمر عليّ ولي

هذا مالك ، ولأبي تمام فيه أكثر من خمس مدائح . وثمّ رجل آخر نختم به حديث الهجاء لا الحديث عن أبي تمام ، هو عياش بن لهيعة ، فقد قال فيه يمدحه :

رأيت لعياش خلائق لم تكن ... لتكمل إلاّ في اللباب المهذّب
له كرم لو كان في الماء لم يضض ... وفي البرق ما شام امرؤ برق خلّب

وقال فيه :

لي حرمة بك أضحى حق نازلها ... وقتاً عليك فدتك النفس محبوسا
كم دعوة لي إذا مكروهة نزلت ... واستفحل الخطب يا عيّاش يا عيسى
لله أفعال عيّاش وشيمته ... تزيده كرماً إن ساس أو سيسا

ثم يتكرر له فتسمع إليه يقول :

ستعلم يا عيّاش إن كنت تعلم ... فتندم إن خلاّك جهلك تندم
أبى لك أن تأبى الخازي كلها ... أبٌ أدرميٌّ وجدٌّ معلم
وقفت عليك الظن حتى كأنما ... لديك الغنى أو ليس في الأرض درهم

ويقول فيه :

صدّق مقالته إن قال مجتهداً ... لا والرغيف فذاك البر من قسمه

وإن همت به فاقتله بخيزته فإنها قطعة من لحمه ودمه

* * *

ثم يموت أبو تمام ، ويموت بعده الواثق بعام . وينهض بالأمر المتوكل ، فيخلو به البحتري خمسة عشر عاماً ، هي سنو حكمه ، مادحاً ، ويكادون يجمعون له في ذلك أربعاً وعشرين قصيدة ، جُلّها من المطولات ، هذا عدا مراثيه لم ينس في آخرها أن يهيىء لسلفه عن سيخلفه في قوله :

وإني لأرجو أن ترد أموركم الى خلف من شخصه لا يغادره
مقلّب آراه تخاف أناته إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره

*

ويخلف المستنصر أباه المقتول . ولكن الثائرين بأبيه لم يمهلوه إلاّ ريثما يُمدّونها له شربة مسمومة . فمات بها . وما أنيس بالحكم غير أشهر ستة . وقد وجدنا للبحتري فيه قصيدته التي يقول له فيها :

تبسّم عن واضح ذي أشر وتنظر من فارتٍ ذي حَوَر
ولما ادلهمت دياجيرها تبلّج فيها مكان القمر
بحزم يجلّي الدُّجى والعَمى وعَزم يُقيم الصَّغا والغُمر

(الصغا : الميل . والغمر : ميل في الوجه)

ولكنا نجده يتخلف عن رثائه . ونجده يمدح المستعين بعده ولا يشير الى المنتصر وما ناله ، في قليل ولا كثير . بل نراه يقول للمستعين :

بقيت مسلّماً للمسلمينا وعشت خليفة لله فينا
فقد أنسيتنا بذلاً وعدلاً أبوّتك الهُداة الراشدينا
أراد الله أن تبقى معاناً فقدّر أن تُسمّى مستعينا

وتبلغ مدائحه فيه الأربع ، وتقصر حتى تكاد القصيدة تُعد أبياتها دون العشرة ويشغب المرالي على المستعين ، فيشتري منهم حياته بنزوله عن الملك لأخيه المعتز بعد سنين ثلاث وبضعة أشهر . ويعمل المعتز الدهاء محتالاً في تدبيره . ويمد يد الصفح لمن

أساءوا الى أخيه . وعى البحتري أن يحتال هو الآخر ، فالمستعين لم يمت ، ولكن الأمر خرج من يده ، والخليفة الجديد يده في يد أعدائه ، حيلة منه أو رأياً رآه . فماذا يقول البحتري وهو القائل أمس ما مرّ بك . اسمع اليه وهو يقول للمعتز :

ألا هل أتاها أن مظلمة الدُّجى تجلّت وأن العيش سُهِّل جانبه
وأنّا رددنا المستعار مذمَّما على أهله واستأنف الحق صاحبه

يريد بالمستعار : المستعين . ولكن أيتركه عند هذه أم يزيده من فضله ؟ هذا ما سيتجلى لك في قوله :

متى أمثّل الشيّال أن تُسعفا له عرى التاج أو تُثنى عليه عصائبه
فكيف ادّعى حق الخلافة غاصبٌ حوى دونه إرثَ النبي أقاربُه
بكى المنبر الشرقي إذ خار فوقه على الناس ثورٌ قد تدلت غباغبه

وما نريد أن نحزن النفوس الوفية ، فنضم الى هذا غيره .

*

وينتهي أمر المعتز على ما انتهى اليه أمر أخيه من قبل فيعزل ، ثم يراد به الشر فيقتل ، ويضطلع بهذا العبء المهتدي . فلا يلتفت البحتري الى ولائه ويتجه للمهتدي يقول :

بارك الله للخليفة في الملـ ـك الذي حازه له المقدار
رُتبة من خلافة الله قد طا لت بها رقبةٌ له واقتدار
طلبته فقراً اليه وما كا ن له بها ساعةً إليها افتقار
علم الله سيرة المهتدي بالله فاختاره لما يختار

*

ويشاء الله أن يقضي المهتدي مقتولاً هو الآخر ، ويمضي المعتمد بالأمر ، فيخرج علينا البحتري في ثياب المرثيّ ، وما لبس للحداد ثوبه ، فيقول :

لقد أمسك الله الخلافة بعد ما وهت وتلافى سربها أن يبدّدا
بمعتمدٍ فيها على الله أسندت إليه فأنعشته الرّضى المتخيَّرا
ولما بدا من سُدّة الملك طالعاً ذكرنا به خير الخلائق جعفرا

وغيرُ المأمون مدح البحتري فأطال ، وخصَّ بعضهم بأكثر من مدحة ، وكان ذلك شأنه مع ابن المدبر وابن ثوابة وغيرهما .

ولعل قصة أبي تمام فالتي مدحه وهجاؤه عند بعض من قال فيهم ، ويحضرني شاهدي على ذلك قوله في ابن ثوابة يمدحه :

أناشد الغيث كي تهمي غواديه ... على العقيق وإن أقوت مغانيه
على محل أرى الأيام تضحك عن ... أيامه والليالي عن لياليه
بنو ثوابة أقمارٌ إذا طلعت ... لم يلبث الليل أن ينجاب داجيه
يقفون هَدْيَ أبي العباس في سنن ... يرضاه سامعه الأقصى ورائيه

. . . . . .

ربا خلين سلوا عن طلابهم ... سلوان صبٍّ تمادى هجر مصطبيه
تكلمنا عنهم نعمى فتى شرفت ... أخلاقه وبها بالمُرْقِه وافديه
موفَّر القدر لم تغمض مهابته ... وتابعَ الذكر لم تُغْمَض مساعيه

ثم قوله فيه يهجوه :

ترون بازغ المجد أن ثيابكم ... يلوح عليكم حسنُها ويَعيبها
وليس العلى كَرَّاعة ورداؤها ... ولا جُبَّة موشيَّة وقميصها

* * *

هذه هي الشاعران أبو تمام والبحتري ، لا ينقصكما عنهما إلاَّ القليل مما يتصل بما أوردنا . قالا كثيراً ، ولكن في همٍّ واحد ، هو أن يُعرفا بقدرتهما على القول ، وتجويدها العبارة ، وما رزق الله من خيال ، وآتى من سعة أفق .

وقد مضى أبو تمام مبكراً ، وما عاصر غير المأمون والمعتصم من الخلفاء ، ثم تلك الكثرة من السادة والقوَّاد .

وقد رأيناه في كل ما صدر عنه جارياً في غير رأيي له ، ولا فكرة استقامت عنده عن الحياة التي يعيش فيها . وما عدا أمرُه عن أن يعيش مُعيدًا لنفسه لكل حادث أو طارئ يقول فيه واصفاً مفصلاً ما كان :

وكذلك كان شأنه مع السادة والقوّاد والأصحاب، مع تفرقة في المنازل والمراتب، وعلى قدر برّهم به كان شعره فيهم.

وقد ذكرنا لك شيئاً عن المدح ونصيب الشاعر منه في كلتا عن الأخطل والفرزدق وجرير، ونرى أن أبا تمام كان الى هؤلاء الثلاثة وأربى عليهم فيما أخذناهم عليه.

*

وما كان البحتري — كما قلنا في البدء — غير صدى لأبي تمّام. جرى في سبيله ولزم ما لزمه سلفه. وقد يكون في مضي أبي تمام تعجيلاً ما يجعلنا معه مترفقين عاذرين، وإن كانت الأربعون غير قليلة على التابين ليعجموا عود الحياة وينفذوا الى ما تنطوي عليه، فيكون لهم معها رأي وتوجيه.

ولكن ما عُذرنا للبحتري وقد بلغ من العمر أرذله. وشُغلت الدولة أيامه بحوادث جسام. أقساها ذلك الشعب الذي استطالت اليه فيه الى المارك، نعرف أن الموالي الذين جلبهم المعتصم كانوا نواة هذا الشر. ولكن هذا وإن كان أكثر الشر فليس كله. فالأمور تشير الى أن سياسة الدولة كانت في اضطراب، وأن الفساد تعيب بأصولها.

فأين كان شاعرنا؟ هو في شغل عن الحديث عن هذا بمدح ينال به رضى وجاهاً، وهجاء يخوّف به خصومه، ويشفي حسيكة نفسه.

*

وما أحب أن أختم الحديث عن البحتري دون أن أقول إن تقريظه في هذا الواجب وكان بملكه، يقفه غير بعيد مع الذين أساءوا وأغوا. وهل لا ترى الاثم فيمن يرى الموالي الذين زعزعوا أركان الدولة يوماً أعداء فيقول فيهم:

ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي درى الفاتك العجلان كيف أساوره

ثم يخيم ويجبن حين يرى أمرهم استشرى فيزلف إليهم غير ناطق عن دين:

فيقول:

أما الموالي فجند الله جلّلهم إن ينصروك فقد قاموا بما احتملوا

بقاؤهم عصمة الدنيا وعزهم سترعى بيعة الاسلام منحلل

ردوا بالاستغفار وتابوا عن خطيئتهم فيه إلى الله والإثم الذي فعلوا
خطيئة لم تكن بدعاً ولا عجباً قد خطئت أنبياء الله والرسل

•

اللهم هذا ضرب من الشعراء، يُراد أحدهم على القول فيقول، ويُزجر الامر وضده فلا يجد حرجاً، ما دام يتلك ببيانه أن يصور الباطل حقاً والحق باطلاً. وما أحسب أمماً تقول كذبها ويضطرب نظام الأمر فيها بغير هؤلاء الذي يؤمنون بغير ما يقولون، أو لا يفكرون مع الإذعان شجاعة على القول والإفصاح.

المتنبي

٣٠٣ — ٣٥٤ هـ

إن شئت أن تذكرك به ، فهو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجُعفي . حمل أبوه الماء للناس في الكوفة ، لعلة بها اسمها كندة . وكذلك بها المتنبي فعرف بها فقيل له : الكندي .

وكان الغلام على فطنة ، والأب على أهبة ، فغشي النحو مجالس العلماء ويحدود مَيْلُه ويعينه عون أبيه الى أن أفاد ما أراد ، وأصَبَّ على ما أحب.

أما عهده فهو ما تعرف ، خلافة عليلة تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وولاة نهّازون غنّامون اقتطعوا لأنفسهم ما هم عليه ، فشتّ الأمر بعد التئام ، ووهنت الحبال في هذا الانقسام . ونشطت للإسماعيلية دعوة ، وهبّت للقرامطة ثورة . فأحيط بالدولة من كل مكان ، وتوالت عليها النُّذر . وآن أن ينهار ذلك البناء الشامخ الذي طاول العلياء قطالها .

قد أومن أن تلك الدولة التي أطلها يوماً عَلَم واحد ، وغبرت دهراً يدبّر سياستها البيت العباسي . كان من الخير أن تعيش ، لكل ناحية منها استقلالها بأمورها ، لها ملكها أو رئيسها ، ويدها سياستها ونظامها ، وهي بأخيرة تجتمع مع هذا البيت أو غيره على أمر يكفل لتلك الأمم والدول القوة والشوكة ، فلا تضار ناحية في غفلة عن الأخرى ، ولا يراد بطرف سوء إلاّ كانت الأطراف الأخرى في عونه ونجدته.

ولكن الذي لا أومن به أن تنحل هذه العُقدة المنثرة إلى قوًى واهية ضعيفة لا اتصال بينها ، ولا تملك إحداها أن تعمد لعدوان ، أو تقف لأهون المغيرين شأناً . وهي مع هذا تأبى إلاّ أن تحيا على غير صلة وضامّة .

ذاك حديث لا تعدّه عليّ ثلة مصدور وفرجة مكروب ، ولكني أردته وأردت رأيي فيه لأناقش المتنبي الحساب في حدوده .

* * *

صدق أو كذب تنبي المتنبي ، ودعوته نفراً من فتيان الكوفة الى الايمان به نبيًّا . فقد دخل الفتى السجن على سُكرة شاعت له ، هي عندي نزوة دينية ، أو أشبه بتلك التي تملك رؤوس اليائسين مستهل حياتهم الفكرية فتكون مرة خروجاً على القواعد ، ومرة جحوداً للعقائد . أما أنها كانت عند المتنبي نبوءة ، وأن معجزتها كانت تلك الآيات المهلهلة النسج التي حفظوها له « والنجم السيار ، والفلك الدوّار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار ، امض على سننك واقفُ أثر من قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه ، وضلّ عن سبيله » فذلك ما لا يليق بعقل ، سيما وأن القوم عرب ، وأن المعجزة شيء أريد محاكاة القرآن

ونحن إذ نذكر له هذه نريد أن نعرّفك به فتىً غير الفتيان ، يملك أن يقول وأن يدعو لما يقول . وكانت أولى ظواهر تلك النفس . ولكنه ما تحسه السجن حتى برأ مما فعل . وقال يستعطف الوالي :

دعوتك لما رآني البلاء ... وأوهن رجليّ ثقلُ الحديد
وقد كان مشيهما في التلال ... فقد صار مشيهما في القيود
تُمجّل فيّ وجوب الحدود ... وحدّي قبيل وجوب السجود

(أي انه لما تجب عليه الصلاة فيجب عليه الحد)

فدلّنا على مدى صبره على أمره وجلده لما يحمل .

*

وبعدُ ، فقد رأى المتنبي أن يبدأ حياته شاعراً مع الشعراء ، فهم يقصدون الملوك والأمراء ، ويلوذون بالبلاطات ، فليتصل حبله بمن أحب . فمدح منهم كثرة . وكان فيمن اتصل به معاذ بن جبل في اللاذقية . ولكنه ما فتىء أن يرم به فرحل عنه الى سيف الدولة ابن حمدان .

وكان ببـاب هذا الملك الحلبي جمهـرة من الشعراء اختص بهم ، منهم أبو فراس ، والسري الرفاء ، والنامي ، والببغاء ، والوأواء .

هنـا استقرّت تلك النفس الوثابة حيناً من الدهر تصبح وتمسي لربهـا سيف الدولة حامدة شاكرة ، في كل أوبة وروحة ، وقومة وقعدة . وما نريد أن نذكر كثيراً ، فثلث الديوان لابن حمدان ، وإليك شيئاً من ذلك . فهذا قوله يهنئه بعيد الأضحى :

هو البحر غُصْ فيه إذا كان ساكناً ... على الدُّر واحذره إذا كان مزبدا
تظل ملوك الأرض خاشعة له ... تفارقه هلكى وتلقاه سجَّدا
وتعجبي له المالَ الصوارمُ والقنا ... ويقتل ما تحيي التبسم والجدا
هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده ... وعيد لمن سمَّى وضحَّى وعيَّدا
ولا زالت الأعياد لُبسك بعده ... تسلّم مخروقاً وتُعطى مجددا

ثم يذكر نفسه فيستنصره على حساده :

أزل حسد الحُسَّاد عني بكبتهم ... فأنت الذي صيَّرتهم لي حُسَّدا
إذا شدَّ زندي حسنُ رأيك فيهم ... ضربتُ بسيف يقطع الهام مُحمدا
أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما ... بشعري أتاك المادحون مردَّدا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني ... أنا الطائر المحكيُّ والآخر الصدى
وقيدت نفسي في ذراك محبة ... ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا
إذا سأل الإنسان أيامه المنى ... وكنت على بُعد جعلناك موعدا

هذا قليل يدل على كثيره . كان هم الشاعر في كله أن يستخلص الممدوح لنفسه ، ليجتمع اليه خيره ، أثرة منه أو وثبة — إن شئت سميتها — أو طموحاً .

ويجد المتنبي على سيف الدولة لأنه لم يكن معه على ابن خالويه فيتركه الى دمشق ثم الى مصر حيث كافور الإخشيدي .

وكان كافور — وهو من تعلم — حريص على أن يضم بلاطه ما تضمه البلاطات ، وأن يرى بين يديه صفوة من الشعراء يقولون فيه فيشيع له كما شاع لغيره .

وأحب ألاّ أمضي عن هذه دون أن ألفتك الى ما قدّر به الملوك الشعراء ، فقد رأوا فيهم شيئاً يجملون به ، فكما يجلب الملك اليه المختار من الرياش يبدو فيه قصره رائقاً ، فتجري به الأحدوثة المستطابة ، كذلك عليه أن يضم اليه تلك الأبواق الناطقة ، وعليه أن ينتقي أعذبها صوتاً وأقدرها صوغاً . فإن فعل فهو آمن أن تحسُّط به غِيَر الجوزاء ، ما ملك معيناً من ذهب ويداً كريمة سخية.

ويحلُّ المتنبي بساحة كافور، وهو يطمع في الكثير ، فكافور راغب فيه، ثم هو واثب على المُلك فتنزعه من ابن سيّده بعد أن سقاه السم . فرجا هنا المتنبي ما لم يرجه عند سيف الدولة وظن بالأيام خيراً ، وبدأ يبيع ليشتري ، ويعطي ليأخذ ، ومدح كافوراً بقصائد منها قوله :

أقِلّ اشتياقاً أيها القلب ربما رأيتك تصفي الود من ليس صافيا
خُلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبى لفارقت شيبي موجع القلب باكيا
ولكن بالفسطاط بحراً أزرته حيالي وأضحي والهوى والقوافيا
وجُرداً مددنا بين آذانها القنا فبتّ خفافاً يتبعنَ العواليا
تجاذب فرسان الصباح أعنة كأن على الأعناق منها أفاعيا
قواصد كافورٍ توارك غيره ومن قصد البحر استقلّ السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلت بياضاً خلفها ومآقيا
أبا المسك ذا الوجهُ الذي كنت تائقاً إليه ، وذا اليوم الذي كنت راجيا
أبا كل طيب لا أبا المسك وحده وكل سحاب لا أخص الغواديا
يُدل بمعنى واحد كل فاخر وقد جمع الرحمن فيك المعانيا
إذا كسب الناس المعالي بالندى فإنك تعطي في نداك المعاليا

ويكشف له عن بعض أطماعه عنده فيقول :

وغير كثير أن يزورك راجلٌ فيرجع ملكاً للعراقين واليا
فقد شهب الجيش الذي جاء غازيا لسائلك الفرد الذي جاء عافيا

وبغير هذه مدح المتنبي كافوراً ، ولبث يسأل وكافور يمطل . ولم يجد الأمور الى خير ، تفرج عنه هارباً ، وأرسل كافور في طلبه فلم يدركه . وكأنه عزّ عليه أن يقول في كافور ما قال أو أن يخيب ظنه ويسوء تقديره ويرجع بصفقة المغبون ، فهتمت نفسه ، فقال يهجوه ، وكان يوم ارتحل يوم عرفة :

عيدٌ بأية حالٍ عدتَ ياعيد ... بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ
أما الأحبة فالبيداء دونهم ... يا ليت دونك بيداً دونها بيد
يا ساقيَّ أخمرٌ في كؤوسكما ... أم في كؤوسكما همٌّ وتسهيد
أصخرة أنا ما لي لا تحركني ... هذي المدام ولا هذي الأغاريد
إني نزلت بكذابين ضيفهم ... عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدي وجودهم ... من اللسان فلا كانوا ولا الجود
لا يقبض الموت نفساً من نفوسهم ... إلاّ وفي يده من نتنها عود
أكلما اغتال عبدُ السوء سيده ... أو خانه فله في مصر تمهيد
صار الخصيّ إمام الآبقين بها ... فالحر مستعبدٌ والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن وما تفنى العناقيد
العبد ليس لحرٍّ صالحٍ بأخٍ ... لو أنه في ثياب الحر مولود
لا تشتر العبد إلاّ والعصا معه ... إن العبيد لأنجاسٌ مناكيد
ما كنت أحسبني أحيا الى زمن ... يسيء بي فيه عبدٌ وهو محمود

ولم يزل المتنبي حلب أفقة منه أن يعود الى سيف الدولة عن غير دعوة أو شيء آخر ، فقصد بغداد ومكث فيها حيناً تركها بعده الى ابن العميد وزير ركن الدولة . ولبث في فلك يمدحه ويثني عليه .

حتى اذا ما دعاه عضد الدولة يستزيره ، ودّع الشاعر هذا الى ذاك ، حيث الأمل أقوى والرجاء أشد . وقد نال المتنبي عنده كثيراً فنعمه وأطنب . ولكنه آثر العودة الى بغداد

وفيما هو عائد اليها كان مقتله عند دير العاقول ، بالقرب من النعمانية

***

كن أنت الشاعر وسل الأيام أن ترجع بك الى تلك الفترة ، أو أن تنقل تلك الفترة بما فيها اليك وحدثنا حديثك . كأني بك تلقي اليّ :

لا بارك الله لي في لسان ولا قول إن لم أجردها لتقويم المعوج من تلك الحياة التي لم تطلع لها شمس الا على انهيار ، ولم تغب الا على مثله.

ومالي أكدّ ذهني وأجهد مقولي في إطراء أو هجاء ، لغنم أريده ، وأمل أنشده ، والمجتمع من حولي يعوزه كلمة ويتطلع الى داعية . ومالي يغريني الذهب وتستهويني المناصب والمجتمع من حولي أغنى وأبقى .

وأين ما يذكرني الناس به من شيم ، وقد وفدت على كافور طامعاً ، ومدحته كاذباً .

وأين الشمم من نفس تستهويها الدعوة ذات المتاع فتهجر ابن العميد إلى عضد الدولة.

ليقل الناس إن المتنبي شاعر ، ولكنهم لن يقووا على أن يقولوا أنه حمل عبئه في الحياة لذلك المجتمع الذي يعيش بينه، فأشار هنا ونصح هناك . ولكنه جرى وراء حظه يريد أن يدركه كاملاً .

ويبقى له ما صدر من أبيات جرت مجرى الحكم ، صدرت عنه في بعض ما ألم ، فلعبت في النفوس صقلاً وتهذيباً .

وهذا شيء نرغب في الكثير منه لحماية الأنفس من الزلل . ولكنه إلى جانب ما كنا نرجوه من المتنبي قليل .

لقد نبت المتنبي حيث الكثرة من الناس يعيشون لأنفسهم ، يثب الطامعون من الولاة والجند الى ما يطمعون فيه، فيغيرون في غير خوف ولا حذر . فعاش المتنبي لما عاشوا له ، يتدبر بأمانه ويدفعه سلاحه الى ما يريد ، فخانه الجد وفقد الكثير من السياسة .

هذا هو المتنبي الطامع ، وما عليه اذا كان غير شاعر ، أو قل اذا كان شاعراً لغير رسالة

أما رسالته فما نحن الى تبيينها وتحديدها ، ولكننا جهدنا أن نرى من شعره شيئاً يلتفت فيه الى ما حوله مما لا يعنيه ، ولكن يعني الأمة التي هو منها ، فلم نجده .

وفي بعض ما عجبا به كافوراً شيء من هذا الرأي ، لو أنه صدر عنه لغير ترة وتأر ، ثم في بعض حكمه شيء آخر ولكنه كان يريد نفسه . ولو أنه لم يشق بما نابه . تُرى أكان يضيق بما نال الناس فيقول ؟

نريد أن يحمي الشاعر نفسه عن التبذل ، ونريد أن تكون البيئة التي يعيش فيها الشاعر في أفقه ، يعنيه أمرها ، إن خيراً وإن شراً ، فيلتفت إليها جاهداً فيما ينهض بها ، ونريده بعد ذلك شجاعاً جريئاً لا يهاب شيئاً .

أبو العلاء المعري

ولد أبو العلاء أحمد بن عبد الله بمعرة النعمان — من أعمال حلب — سنة ٣٦٣ هـ وكُفَّ بصره عن علة ، لم تكن غير الجدري ، سنة ٣٦٧ هـ

وكانت له الى بغداد رحلة سنة ٣٩٨ هـ ، ومنها عودة ، وما جاور مكثه فيها سنة وسبعة أشهر .

ثم لزم المعرة لم يبرحها ، وضمه منزله الى أن خرج منه محمولاً الى رمسه سنة ٤٤٩ هـ

وكان لرجل رأي في الحياة تعرفه . فقد عاش نباتيًّا زاهداً قانعاً باليسير عمراً يقدره من أدركه بخمس وأربعين سنة .

وتضطرب الرواية عن دين أبي العلاء ، فهو شاكٌّ أو ملحد هنا ، مؤمن تقي البرية هناك .

هذا ما نريده لك الآن عنه . أما عصره فما هدأت اضطراباته . وقد عرفت حلب الحمدانيين والفاطميين والروم ، وداست جيوشهم أرضها ، غازية مغزوة . ما ذاقت حلب وما حواليها خلال ذلك طمأنينة ولا دعة .

وإليك تلك الكلمة ننقلها عن ابن العديم مثلاً مما كان . قال : « سنة ثمان عشرة وأربعمائة . فيها وصل الأمير أسد الدولة صالح بن مرداس الى حلب . وأمر باعتقال مشايخ المدينة وأماثلها . فاعتقل سبعون رجلاً في محبس الحصن سبعين يوماً . وذلك بعد عبد النطر بأيام . وكان أسد الدولة غير مؤثر لذلك . وإنما غلب قادرس على رأيه ، وكان يوهمه أنه يقيم عليهم الهيبة . ولقد بلغنا أنه خاطبه في ذلك ، فقال له : أقتل المهذب وأبا المجد — يعني أخا أبي العلاء — بسبب ماخور ؟ ما أفعل !

وقد بلغني أنه دُعي لهم في آمد وميافارقين ، وقطع عليهم ألف دينار ، واستدعى

الشيخ أبا العلاء . فلما حصل عنده في المجلس ، قال له الشيخ أبو العلاء : مولانا السيد الأجل أسد الدولة كالسيف القاطع ... فقال صالح : قد وهبتهم لك أيها الشيخ . ثم قال أبو العلاء بعد ذلك :

تغيبت في منزلي برهة ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر إلاّ الأقل وحُمّ لروحي فراق الجسد
بعثت شنيعاً الى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد

*

وإذا ذكرنا أبا العلاء الشاعر ذكرنا له ديوانيه : سقط الزند ، واللزوم ، كان أوهما لشبابه ، والثاني لما بعد ذلك .

وكما كان أولهما أيضاً وصلة بينه وبين الناس ، مدح فيه ورثى وشكر ، كان ثانيهما لشيء أسمى من ذلك وأجل . فجعله وصلته الى نفسه ، فتحدث اليها وتحدثت اليه . وهكذا جاءت اللزوميات غير السقط .

وقد تحدث الينا أبو العلاء في مقدمة السقط فذكر أنه لم يكن من طلاب الرفد والصلة.

وفي الحق إنه لم يمدح فيه الاّ القليل من الناس صَدْرَ عمره ، قبل أن يعتزلهم الى محبسه ، كما أنه لم يمدحهم لعطاء ولا نائل ، وما قبل هدية ولا صلة من شريف ولا وضيع.

ويكاد يصف لك أبو العلاء نفسه في هذه الكلمات : « وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء الرجال . ثم يقول : « ويحسن الله جزاء البغداديين ، فقد وسفوني بما لا أستحق ، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم ، وعرضوا عليّ أموالهم عرض الجد ، فصادفوني غير جذل بالصفات ، ولا هش الى معروف الأقوام » .

وشيء آخر ، فان الوزير الفلاحي كتب الى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك ، متولي حلب وأعمالها ، يحمل أبي العلاء الى مصر ، ليبني له دار علم . وسمح بخراج معرة النعمان له في حياته وبعده .

ونهض عزيز الدولة الى معرة النعمان واجتمع بأبي العلاء ، وقرأ عليه كتاب الوزير.

فاستمهله أبو العلاء . ثم كتب الى الوزير يستعفيه من ذلك . فأعفاه . وكان مما قاله :

كأنما غانةٌ لي من يفيءُ فعدْ عن معدنٍ أسوان
صرتُ برغمي عن زمان الصبا يعجلني وقتي وأكوان

وأخيراً فهذا قوله :

لا أطلب الشيب من الناس بل أطلبه من خالق الشيب
ويشهد الأول أني امرؤ لي جسد يفرق في عيبي
تضرب أضراسي وظفي بها التعطيس بالكدس في جيبي
ويلي مما أنا فيه وجل الأمر عن ويح وعن ويب

ونحسبنا في غنى عن أن نضع تحت بصرك مثلاً من شعره ، مما قال هنا أو هناك . فقد عاش أبو العلاء لغير ما عاش جل الشعراء له ، وما جرى لما جروا له . وفرغ لنفسه ثم لرأيه في الحياة يصوغه شعراً .

فقد حمل أبو العلاء نفساً كبيرة ، ما الى ذلك شك . وساق قوله عن أن يُشترى ولسانه عن أن يؤجره ، وما الى ذلك شك أيضاً .

وقد نشدنا مثل ذلك فيمن حدثناك عنهم ، فلم نجدهم أبلوا بلاءه ، ولا عدوا عَدْوه .

وإذاً فقد أخذ أبو العلاء نفسه بما يأخذ به أصحاب الرسالات ، وسلك مسلكهم ، ولكن أي رسالة حمل وأدّى ؟

ذلك ما نحب أن نحدثك فيه .

نحن إذ ننشد الشاعر ذا رسالة ، لا نلزمه وجهة ولا قصداً . ولكنا نلزمه البعد عما يحياله الطامعون في جاهٍ ونشب ، ثم نلزمه ألاّ يسلك بنفسه مسالك الزلل فيعيش مأجوراً ، ونلزمه أن يقول قوله الحق الذي يدين به لا لما يريده الناس عليه ، ونلزمه أن يرى المتربة في ظل إيمانه بنفسه خيراً من الغنى في ظل يمانه بالناس .

ذلك أول ما نراه مع الشاعر ذي الرسالة ، أما بعد هذا فقد يرى هو أن من الحق عليه أن يؤدي رسالته في هذا السبيل ونراها نحن في غيره . ذلك شيء نؤمن أن الخلاف فيه بيننا وبين الناس واقع .

ولنلتفت عن هذا ، حتى لا يطول بنا الأمر ، الى أبي العلاء لنرى أي الرسالتين كانت أولى به . أتلك التي حملها ، أم أخرى كانت له فعدف عنها ؟

أمّا التي حمل فهي آراؤه وما دعا إليه من رحمة بالحيوان ، وزُهد في الحياة ، والشيء آخر لم يُعرف عنه في وضوح . وأما التي لم يحمل فتهيئة النفوس ، وإعداد الخواطر لنهضة اجتماعية يخرج منها قومه الى عزّة وأمن .

ولو سلمنا له بالأولى ، وقلنا ذلك استعداد النفس وتلك طبيعتها ، فلن ننسى له أنه فقد شيئاً من صفات « الشاعر ذي الرسالة » يكاد يكون خطيراً .

أتعرف لِمَ اضطرب الناس في أمره فلم يعرفوا رأيه في وضوح ، وفات الناس أن يلقنوا عنه تعاليم ومبادىء ؟ ذلك لأن أبا العلاء لم يكن شجاعاً جريئاً . ولو أنه رزق هذه الشجاعة لكشف للناس عما يدين ، ولمضى وقد بيّن . ولكنه رضي لنفسه هذا ، أو أن الخوف حبس لسانه عن أن يجري بما يدين . فقضى وما أتمّ ما حمل .

ولو رأينا أنه كان للثانية أول . فأبو العلاء لم يحمل ما يجب له . وأنه أساء إلى من حوله إذ شغلهم عن الأهمة بما يكوّن الشعوب ويبني الأمم ، بالحديث عن أشياء لم تُكشف فيعرف الرأي فيها ، ولم تُترك فيراح الناس إلى غيره مما عنّاهم وأثقلهم ، وكانوا في حاجة معه إلى مُعسّر يُيسّر وحادٍ من الشعراء يجمع الناس وراءه الى حيث الحرية والخلاص .

خاتمة

الأمور إلى ثلاث : رأس ولسان ويد .

فمع الرأس التدبير . ولا نجاح لتدبير إلاَّ إذا رُزق لساناً مُفصحاً ، يمكِّن له في الأذهان ، ويُمهِّد له السبل إلى القلوب ، وعلى قدر ما تؤتى الألسنة من بيان تكون إصاخة المصيخين ، واستجابة المستجيبين .

وباليد تستحيل الفكرة حقيقة،في حضارات مشيدة ، ونظم مُستقامة ، وسياسات تكفل بسطةً وسعة وأمناً ورفاهية .

فإذا سلمت هذه الثلاثة سلم كل شيء ، ومضت الأمور إلى خير .

وإذا اعتلَّ الرأس وسلم اللسان بقي البُرء مرجوًّا والسلامة مأمولة . فالألسنة كما هي للأيدي محركة ، فهي للرأس مقومة ، بما تدل على مساءة في الرأي ، وتكشف عن عور في التدبير .

ففي سلامة اللسان السلامات كلها ، وفي علته العطب لجميعها . فهو ان اعتلَّ مفسدة للتدبير يسيء الحديث عنه، فيعرفه الناس في غير صورته فلا يرضونه ، ويميل بالأيدي فيصرفها عن نصرته ويجمعها على حربه .

وإنما أردت باللسان القول في لونيه : شعره ونثره . فما أحقنا بتنشئة الألسنة تنشئة سليمة تضمن في كل ما يصدر عنها الخير والسلامة .

آن أن نعرف للقول شأنه ، وأن نستقصي السبل ونتحرَّى المناحي في أن نهيء له ما نضمن به ما نريد .

نحن لا زلنا نعرف الأمور بمظاهرها العارضة . فنعرف المعلم في حسن تلقينه ،

والطبيب في يده الآسية ، وجرعته الشافية . ولعرف المهندس فيما يشيد فيجيد ، ولعرف الصانع فيما يبدع ، والزارع فيما ينتج . ولظن أن عند هذا تنتهي رسالاتهم

وما درينا أن على المعلم أن يقتطع للتوجيه من وقته وجهده مثل ما يخص به التلقين ، وأن على الطبيب إحياء الروح الصحية في النفوس ودعوة المسئولين في جهد لا يفتر الى إحقاق دعوته . وعلى المهندس أن يرى لأمته ما تظهر به ناهضة حية . وعلى الصانع والزارع أن يرى لهما من نتاج اليد ما يدعم ركناً ويسد نقصاً .

فأنت ترى أن الحياة ليست الى تلك الحركة الآلية تستند ، بل هناك هذا النوع الذي كشفنا عنه وسميناه رسالات .

أما عن رسالة الشاعر فقد قدمت في هذا الكُتَيِّب جمعاً من الشعراء ، عرضت لهم عرضاً سريعاً ، أردت فيه أن أقول رأياً في ضوء فكرتي عن الشعر . أما الفكرة فأنني لم أخالف عليها . وأما الرأي فهو ما رأيت وقد يرى غيري غيره . وأنا فيما أرى ويرى الناس متفقون على الفكرة في انه لكل شاعر رسالة ، مختلفون إن اختلفنا على الرسالة ولونها .

فاذا صحّ هذا فنحن الى عودة بنظرة الى دراسة الأدب جديرون ، فالأدب اليوم يدرس نصوصاً ودراسات .

وأحب أن يُحصَّل درس النصوص جميع ما يتصل بالأسلوب والمعنى ، من قوة وضعف ، وإجادة وإسفاف . حتى اذا ما استقامت لنصوص الشاعر أو الكاتب في الأذهان ووضحت للفكر . جاءت الدراسة فعرضت لبيئة الشاعر عرضاً مفصلاً . فكشفت عن نظام العصر . واتجاه الرأي فيه ، وقالت لنا عن مهام المصلحين وما عليهم . وعرّفتنا أثر الشاعر ونصيبه ومشاركته في ذلك .

نعم ، علينا أن نعمل ذلك لنخلق في الأدب جيلاً جديداً لا تقنع منه بالقول المحصول واللفظ الطيب ، بل نطلب منه بعد هذا الرسالة التي يبنت شيئاً عنها . والرسالة لا تقوم إلاّ على شجاعة وثبات ودين . فنحن مطالبون هذا الجيل الذي نريد من الأدباء أن يكون هذا وغيره مما يتصل به جزءاً من رسالتهم

وأكاد أقول آسياً إن الأدب العربي بَعُد كثيراً عن هذا الغرض والتفت الى التنميق

جهده . وقد ذكرت سبب ذلك صدر هذا الكتيب . وقلت إن النقد هو الذي خلق الأدباء هذا الخلق .

ألا فليكن لنا نهج في النقد جديد لنظفر بلون من الأدب جديد نمكن فيه للأدب بأن يتبوأ مكانته ويحل محله .

وعند هذا أقف بعد اعتذاري عن أخطاء في الطبع ، وإجمال كنت أرجوه تفصيلاً ولكني اذا ذكرت أن الكتيب أكاد أكون أمليته على الطابع، وأني لم أملك فسحة للإعداد وأخرى للمراجعة، رجوت الى القارئ أن يقبل مني العذر ويسأل له ولي التوفيق والسلامة

الطرق نحو الشمال وأحسنها وأبدعها منظراً ، وأكثرها تنوعاً إذ يجمع بين المناظر البحرية من جهة والسهلية والجبلية من جهة أخرى . وقد تمتعنا بعض الوقت بحرّ صحو مشمس ذكرنا بمناخ مصر ، في الأوقات التي سافرنا بها نهاراً حيث كانت درجة الحرارة مناسبة لتأثير البحر .

وكان ذلك الطريق الساحلي ملازماً للساحل مباشرةً ملازمة الظل لصاحبه اللهمّ إلاّ في القليل النادر حيث كان يبتعد قليلاً عنه في المواضع التي تقترب منه حافة الهضبة .

مررنا بمدن ومواني هذا الساحل الهامة مروراً خاطفاً يربطها ذلك الطريقُ الساحلي فتبدو ليلاً كأنها لآلئ نظمت في عقد من جمان كرسيه وإليكانت وفلنسيه وتراجونه وبرشلونه وجيرونا كمن يستعرض صوراً في كتاب ، ويتوقف قليلاً أمام بعضها ليتحقق من معالمها ، ويستمتع بها على مهل لأخذ فكرة عابرة عنها . وطوينا البعض الآخر بسيارتنا طيّاً لضيق الوقت على عكس ما اتبعناه في المدن الاسبانية التي تتوسط الهضبة حيث سنحت الفرصة للاقامة ببعضها أربعة أيام أو خمسة تمكنا خلالها من رؤية معظم معالمها والوقوف على حياتها والاندماج مع سكانها على اختلاف طبقاتهم .

هكذا قطعنا ذلك الطريق الساحلي في ثلاثة أيام متخللين في بعض مدنها للتزود من الزاد أيسره ثم استئناف السير أو النوم في البعض الآخر ورؤية بعض معالمها وآثارها كما سترى .

تركنا غرناطة في منتصف ليل اليوم السابع من أغسطس ١٩٤٧ بعد انقضاء يومين متواليين طفنا خلالها بقصور الحمراء وأبهائها مفخرة العالم الاسلامي وسجلاً حافلاً لفنونهم المعمارية والزخرفية التي لامثيل لها في أي جزء من أنحاء العالم اليوم . هبطنا الهضبة في جوف الليل متجهين صوب الساحل للوصول الى مرسيه ظهر اليوم التالي ، وما أن أشرفنا عليها حتى تذكرت مسجد أبي العباس المرسي بالاسكندرية الذي افتتحه جلالة مولانا الملك في صيف عام ١٩٤٠ ، وينسب صاحب هذا المسجد — أحمد بن عمر محمد الأنصاري المرسي — الى مدينة مرسيه ، وليس هذا بمستغرب ، إذ ابتدأت علاقة مرسيه بمصر منذ بدء الفتح العربي لإسبانيا حيث كانوا يقاتلون جنباً الى جنب مع جند الشام . ومنعاً من حدوث

اضطرابات بين طوائف الجند الإسلامية اقتطع كل طائفة منها مدناً بعيدة عن الأخرى وكانت مرسية من نصيب الجنود المصرية التي سموها « مصر »

اشتهرت سهول مقاطعة مرسية الخصبة الغنية بخيراتها النباتية كالحبوب والفاكهة وخاصة البرتقال والبرقوق ويرجع الفضل في نهضتها الزراعية الى مشروعات العرب المائية كالري والصرف المتبعة الآن ، فأمامك هذه المشروعات تلك السهول الى جنات وارفة ذات أكمام زاهرة يانعة

ويتوسط هذا السهل الخصب مدينة مرسية نفسها ، عاصمة مقاطعة مرسية التي تبعد عن ساحل البحر الأبيض بخمسة وعشرين ميلاً اجتزنا شوارعها العريضة المستقيمة المحاطة بالأشجار حتى وصلنا الى فندق فكتوريا الذي يقع على جانب عظيم من الفخامة ، وطلب إلينا النزول فيه للإستراحة به وكان ذلك قبيل الظهر ، وإن نسيت لا أنس ذلك الرياش الفاخر الناعم الذي زوّد به الفندق ، فغشيت وسائده بريش النعام الذي لم تطأه أجسادنا أو جسدي أنا على الأقل من قبل ولا تتصوّر شعوري عندما وجدت المكان الذي رقدت فيه قد هبط عن باقي الوسادة وأخذتني سنة من النوم كانت أسعد أوقات حياتي وخاصة بعد سفر طويل .

بعد تناول الغداء ، أتيحت لنا فرصة زيارة كتدرائيتها التي بنيت في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر على الطراز القوطي ما عدا بعض زيادات أضيفت إليها في عصر النهضة كبرج الأجراس الذي يرتفع الى ٤٨٠ قدماً كما أضيفت الى واجهتها واجهة كورنثية في القرن الثامن عشر .

وفي الغروب اجتزنا باقي سهول مرسيه الشمالية الذي قطعتها جيوش المسلمين في عهد طارق بن زياد الاستيلاء على ولاية « تدمير » التي كانت تسمى حينئذٍ . وشهدت هذه السهول أعظم معركة انتصر فيها المسلمون على القائد الاسباني وقتل معظم رجاله . وأبى ذلك القائد التسليم إلاّ بعد الحصول على شروط حسنة . فدبر في حيلة عرض فيها النساء بملابس الجند على الأسوار للتغرير بالمسلمين . وخضعت ولاية مرسيه للحكم العربي في قرطبة ثم للامراء المسلمين في المريه وطليطلة وأشبيلية . وأخيراً استولى عليها الموحدون ١١٧٢م

كاتدرائية فلفسيا من الداخل بعمدها الضخمة وعقودها المستديرة

حتى أنهار القوط على حكم الزيريين بها في نهاية القرن الثالث وضمها الى مملكة كاستيل .

* * *

لم يستغرق السفر الى اليكانت وقتاً طويلاً لا يزيد على أربع ساعات . فوصلنا اليها في منتصف الليل حيث استقبلتنا علية المدينة وعلى رأسها أمام أحد أنديتها الحمراء التي تشبه « الكازينو » بالاسكندرية ، ولم نمكث بهذه المدينة سوى ساعتين تناولنا خلالها طعام العشاء ، وقد مدت على الموائد الى جانب ما تشتهي الأنفس مما ذُكر وطاب ، أحسن ما أخرجته اليكانت من أنواع ثمورها المحلية المعتقة المستخرجة من كرومها التي تحتل ٤٠ ٪ من المساحة المغروسة . ولا يصدر منها إلا أقلها نوعاً إلى أوربا وخاصة فرنسا

وقد يظن القارىء أننا قضينا ليلة « حمراء » دارت فيها رؤوسنا مع الكؤوس ، بل احتفظنا بتقاليدنا الاسلامية ، وقد زاد من دهشة الاسبانيين أن بعضنا بل الكثير منا لا يشرب الدخان . وقد استغل المدخنون منا هذه الفرصة وأقبلوا على سيجار هافانا بنهم الذي أهدي الينا في غير مناسبة واحدة

أبى محافظ المدينة وزملاؤه إلا أن يكرموا وفادتنا بأجلى معاني الاكرام وان يقضي معنا أطول وقت ممكن وأن نسير معه بعد العشاء على كورنيش المدينة الى نادي الضباط للتجديف على مقربة من « الكازينو » فسرنا على الأقدام تحقيقاً للمثل العامي « أتعشى وأتمشى » .

وخلا استعفاء الأسبانيون منا في هذه المرة من كل المظاهر الرسمية واندمج محافظ المدينة وأعيانها معنا يضحكون ويلعبون ويرقصون في حلقات دائرية غير عابئين بالمارة ولا بنظراتهم التي شخصت بها الطريق في ذلك الوقت المتأخر طلباً لنسيم عليل يروّحون به عن أنفسهم من حر النهار ، وبالرغم من أن اليكانت مدينة ساحلية فانها كانت ولا تزال كغيرها من المدن الساحلية محرومة من الهواء البارد الذي نعرفه في مصر ليلاً إلا في القليل النادر ، ويظهر أن سبب ذلك يرجع الى أن الرياح الشمالية التي تنطف حرارتها تسير موازية لساحل أسبانيا الشرقي ولا تتوغل داخله مما جعل الاسبانيين يلجأون الى الساحل دائماً طلباً للهواء البارد في تلك الساعات المتأخرة بعد منتصف الليل .

وفي صباح اليوم الثامن أشرفنا على سهول فلنسية فاخترقنا حدائقها الغناء المشهورة بأكواخها الناصعة البياض، تحيط بها أشجار الصنوبر الداكن الخضرة والنقض الكثيف التيجان مع نخيل في غاية الجمال. تشرف هذه الأكواخ على منحدرات ساحلية خضراء أحاتها مشاريع العرب المائية في القرون الوسطى الى مناطق تعدُّ من أعظم جهات العالم خصباً. وتدين فلنسيا في نهضتها الزراعية إلى العرب الذين ظلّوا حكاماً عليها زهاء الخمسة قرون حتى القرن الثالث عشر.

ولما كانت الأراضي الزراعية محدودة الانتاج لا تتفق والتقدم الاجتماعي الحالي زيادة عدد السكان زيادة مطردة فقد هاجر عدد كبير من الريف الى المدن حيث الحياة أكثر رفاهية ونعيماً والمدينة الحديثة أكثر سحراً وجاذبية من جمال الريف الطبيعي.

انتبهت الحكومة الجمهورية الحالية الى ذلك الخطر الذي يهدّد كيان الريف الاسباني فأخذت تعالج هذه المشكلة بشتى الوسائل فسارعت الى اصلاح مساحات كثيرة من الأراضي البكر بإقامة المشاريع المائية كالترع والمصارف وتشييد مزارع نموذجية مزوّدة بالمساكن الصحية الصالحة للسكن ووزعت تلك الأراضي على الفلاحين.

ولما لم يحقق ذلك المشروع الذي تشرف عليه الحكومة الغرض المنشود منه، ولم يوقف تيارات هجرة الفلاحين الى المدن للاشتغال بالصناعة فقد لجأت الحكومة الى مشروعات أوسع نطاقاً بإيجاد مؤسسة وطنية لتوزيع الأراضي ونزع ملكيتها والانتفاع بها على مزارعين ذي خبرة لإدارتها وكفاية استثمارها على أن تؤول ملكيتها في النهاية لهم نظير تقسيط ثمنها على آجال بعيدة المدى تبلغ الخمسة والعشرين عاماً بأرباح لا تزيد عن ٣ ٪.

وقد وجد الفلاحون كل التسهيلات اللازمة للأراضي من هذه المؤسسة لإدارة الأراضي كشق الترع والمصارف ومدهم بالإرشادات الزراعية ومنحهم قروضاً تعينهم على اصلاحها فسارعوا الى تلبية رغبتها وتنافسوا في اقتناء هذه الإقطاعيات الزراعية حتى بلغ عددهم ١٣٫٢١٣ مالك دفعوا ما عليهم من الأرض قبل الموعد المحدد بوقت كثير وبلغ جملة ثمن ما حصلت عليه المؤسسة الوطنية ثمناً للاراضي المباعة ٣٠٠ مليون بزيتا.
(الجنيه المصري = ٤٤ بزيتا)

وأهم آثارها كتدرائيتها التي شيدت على أنقاض المسجد الكبير وترتفع برجها الى ٦٤ متراً في عنان السماء — وتشرف طنفه على أجمل ما حبته الطبيعة من المناظر الخلابة للمدينة وما يحيط بها من الحدائق الدائمة الخضرة والزهور لدوام فصل الربيع طول العام.

وقد بنيت الكاتدرائية على الطراز القوطي في القرن الرابع عشر . قد غيرت الاصلاحات والزيادات التي أضيفت إليها من طرازها القديم ـ ولم تحتفظ بحالتها القديمة سوى قبتها ـ أما باقي الكاتدرائية فطرازه من طراز الباروك ، وأضيفت إلى أركانها الأربعة معابد صغيرة تعد من أروع ما أنتجه الفنانون الاسبانيون أمثال جويا ولاتوس . وكانت فلنسية منذ القرن الخامس عشر أهم مراكز الانتاج الفني الاسباني فتطورت فيها الفنون على يد الرسامين جاكومارت وفينشير ولاتوس ويوحنا وريالتا واسبينوزا وأورندينا وغيرهم ، كما كان بها مدرسة للنحت وأشهر أساتذتها مينوزا وفرجارا وستيف وجميعهم مثلت روائعهم في كنائس فلنسية ويضم متحفها نماذج تمثل تطور فن فلنسية منذ بدايته .

* * *

ورث الفلنسيون من العرب حبهم للعلم وتبوغهم فيه فأنشئت بهم جامعة في مدينة فلنسية نفسها تضم كليات العلوم والطب والحقوق والفلسفة (الآداب) وقد تمكنا من زيارة الكليتين الأخيرتين وتضم هذه الجامعة نحو ثلاثة آلاف نسمة لايتعدى عدد الاناث بها عن الثلث.

وامتاز أهل فلنسية بالمرح وكثرة الحفلات والأعياد ولم تمض أعوام كثيرة فيها يوم واحد دون أن يحتفل فيه بعيد من الأعياد في شارع أو أكثر — واذ قلت هذه الأعياد اليوم فإن الفلنسيون ينتهزون أعياد القديس يوسف والأعياد التي تقام في أوائل ربيه وأوائل أغسطس كحفلات معركة الزهور التي كان للفلنسيين قصب السبق في ادخالها الى اسبانيا، ويتفننون في شتى أنواع المرح والحبور الذي تأصل في دمهم من زمن بعيد . وقد ظهر ذلك في الحفل الذي أقامه لنا المحافظ في مصيف بلدية المدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

وفي الصباح الباكر من اليوم التاسع وقفت السيارة أمام أحد مستودعات البنزين في

وشلوة المتزود منها استعداداً للسفر إلى الحدود الاسبانية . انشغلت صاحبة المشروع في بيع بعض طعام الافطار بقارة فتأخرت قليلاً عن إجابة طلبنا . وتبودلت سائقة حادة بين موظفي وزارة الخارجية الاسبانية المرافقين لنا وبين صاحبة البنزين علا فيها صوتها دون مبالاة لشخصياتهم الرسمية ، وغير عائفة من المتربعين على كراسي الحكم . وان دلّ هذا على شيء فانما يدل على أن الشعب الاسباني يتمتع بكامل حريته للتعبير عما يراه دون أي ضغط أو نفوذ خارجي . وقد تبين لنا من هذا الحادث ومما لمسناه بأنفسنا في غير هذه المناسبة على أن حكم الدولة وعلى رأسها الجنرال فرانكو حكم دكتاتوري صالح مستنير — عكس ما تفهمه من معاني الدكتاتورية كالنازية والفاشية وغيرها — ولذلك كان الجنرال فرانكو محبوباً بين قومه لما لمسه من جهوده الجبارة وحكمته وحسن سياسته في تجنيب البلاد ما ويلات الحرب العالمية الأخيرة وتفرغه للنهوض بها في خطوات سريعة في جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية وخاصة بعد الحرب الاسبانية الأهلية المنتهية عام ١٩٣٦ التي أوقفت سير الحياة وكل تقدم فيها .

ومما يدل على حكمه المستنير ، وبعد نظره ، وهدم استئثاره بالسلطة واحترامه للحريات الشخصية ، ومسايرته لرغبات الشعب ، أنه استهلّ عهده باعترافه بأن اسبانيا كاثوليكية وأنها ملكية ولذلك أعاد جميع الحقوق المدنية إلى الملك الفونس الثالث عشر وسمح لابن ولي عهده «دنجوان» المطالب بعرش اسبانيا بالتعلم بمدارس اسبانيا بل ذهب الى أبعد من ذلك فأراد أن يقوم حكمه على رغبة صادقة من الشعب فأجرى في عام ١٩٤٧ استفتاء عاماً محايداً فاز فيه بأغلبية ٨٢ ٪ ممن لهم حق الاقتراع و ٩٢ ٪ ممن تقدموا فعلاً لاعطاء أصواتهم بالاعتراف كزعيم للشعب الاسباني مدى حياته ثم يخلفه على عرشها نسباني كاثوليكي من دم ملكي يختاره مجلس اللاط الملكي وأضفيه تلقي أصواته .

هكذا غادرنا اسبانيا أثناء تقرر الشعب مصيره .

محمد رجب البيومي

مبعوث الآثار الاسلامية .

نساء فلنسية بملابسهن الوطنية

جامعة فلنسيا يتوسطها تمثال لويس الخامس

مكتبة المقتطف

كاتبان وكتابان

بقلم حبيب الزحلاوي

(١) كتابان صدرا في شهر واحد، طبع الأول في بيروت، والثاني في القاهرة، وقد اتجه مؤلفاهما الفاضلان اتجاهاً واحداً، وصوّبا جهودهما صوباً واحداً، ودعيا الشعوب الشرقية الى اليقظة والانتباه، ووصفا كيف كان حالها في الماضي، وقدّرا كيف ستصبح عليه إذا بقيت راضخة لحكم الأمر الواقع، وذكرا ببيان واضح الوسائل التي توسلت بها تلك الحكومات المغتصبة المستعمرة وبأسلوب لا لبس فيه ولا عوَج الذرائع التي استحدثتها لابقاء سلطانها مبسوط الظل على القارات الشرقية الشاسعة وقطانها الأحرار، وأهابا بأقوامهما أن استيقظوا وتدبروا مصائركم، واعملوا الى دفع شرور أولئك الأقوام السلاّبين النهّابين عنكم، ألاّ يكون مبعث هذا الاتفاق في الرأي والغرض والدعوة وفي الزمن أيضاً هو الوعي القومي ويقظة النفس؟

(٢) يستمد الكاتب المصلح وحيه من شعوره المرهف ومن آلام موضوعية تتحوّل الى آلام ذاتية تعمل في النفس فعل الأولى، فمن هذه الآلام تأثرت نفس الدكتور قسطنطين زريق وكيل رئيس الجامعة الأميركية في بيروت وأحست بالنكبة التي حلّت بالأمم العربية في فلسطين، فكتب في «معنى النكبة» كتيباً صغير الحجم، كبير الفائدة. وهكذا أيضاً أحست نفس الأستاذ أحمد رمزي بك الفيصل العام ثم ممثل مصر السياسي بسوريا ولبنان بالواقع من جور الاستعمار الظاهر، وبالباطن من أسرار سياسة المستعمرين فكتب متخذاً من «الاستعمار الفرنسي في شمال افريقية» كتاباً كبير الحجم كبير الفائدة، دعا فيه مثل دعوة زميله زريق، وأهاب بقومه مثل ما أهاب الأول بقومه. ألا يكون هذا أن الكاتبين المصلحين رمزي وزريق قد استمدا وحيهما الاصلاحي من نفسيهما الحساسة ومن نفوس أهالي بيئتهما الحساسة أيضاً، وألا يكون مصدر هذا الاحساس هو يقظة النفس والوعي القومي؟

(٣) لا يخلو مجلس من المجالس الاجتماعية ، خاصة كانت أو عامة ، من حديث عن حالنا الحاضر الكدر بالنسبة لغيرنا من الأمم التي تواكب قافلة الحياة ، وعن حالنا بالنسبة للحكومات التي تقف عثرة في سبيل تقدمنا ، ولا نسمع من هاتيك الأحاديث كلمة رضا واحدة عن أمر واحد من أمورنا الاجتماعية ، بل بالعكس نسمع التذمر والشكوى والنقد والملامة بل السخط على أعمال رجالنا العاملين مبعثه الاستحداث والاستعجال لسير قدماً في موكب حياة العصر ، ولو تدبرنا أعمال رجالنا العاملين لوجدنا فيها الخير والبركة بالنسبة الى ما كنا نستجديه من الحكام الأغراب عنا ، وبالنسبة الى أطماعنا . وقد كانت محدودة بحدود رضا المخلوق الخامل واستكانة الذليل القانع ، ولكن طبيعة نفسنا وقد أيقظتها الحرب تتطلب السرعة . وتحيزه وعينا وقد تحسست طريق الحياة تنشد بلوغ الأرب بأقرب مدى ، وأقصر سبيل

لذلك أقول وأؤكد لمن لا يؤمنون بتطور الأمم الشرقية ، والى الذين ينكرون عليها نهضتها ، أن مبعث حكمكم الجائر ، إنما هو حكم الشيوخ على الشباب ، وحكم الجيل الذي انقضت مهمته في الحياة على جيل يحمل رسالته لحياة جديدة وعنصر جديد بوسائل غير وسائلكم وسلاح غير سلاحكم .

(٤) إتخذ رمزي بك من الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقية وسيلة لإيقافنا على أصل الاستعمار ، وأطواره ، ومشاكله ، وتوسعه الجارف ، وشرح مبادىء المستعمرين وفلسفتهم الاستعمارية الحديثة ، وسرد طائفة من أخبار وأعمال وقعت تحت سمعنا وبصرنا وحسنا في أمسنا القريب ويومنا الحاضر في الجزائر ومراكش وأورد الاحصائيات التي تظهر حال المستعمَر المسكين الذي يعيش مكتفياً بالفتات بالنسبة لحال المستعمِر السيد الذي يمتص دم الشرقي ولا يرتوي . ثم ذكر بجرأة وصدق الأسباب البعيدة والقريبة لاحتياط الشعوب الشرقية ، وقد تبسط في شرح ما حل بالمراكشيين والجزائريين عن يد الفرنسيين شرحاً يدعو الى التساؤل هل للفرنسويين أفئدة وإحساسات مثل ما لكل الناس وهل لهم شعور انساني يعادل شعور الانسان المهذب ؟!!

وأوضح الكثير من المناقصات الاستعمارية ، وتدخل بعض الدول الكبيرة في شؤوننا وتفلغل النفوذ الأجنبي في مصالحنا وقال « إن كل دراسة لشؤون العالم بقصد الكفاح في سبيل تحرير الشعوب . يجب أن يسبقها تعرف التوسع الاستعماري وأثره وأهميته ومداه ، لكي نستخلص القواعد الأولية التي تعرفنا العلاقة بين الشعوب المحكومة والدول الحاكمة ، وهي التي تثير بصيرتنا وتحدد مركزنا إزاء أوربة لكي يركز على أساس منطقي

معقول موقف الأجيال القادمة من هذه السيطرة وعلاقتها بما يجيش بصدور الشعوب من آمال ، وما ترجو الوصول اليه من أهداف حتى تحرر نهائيًا . وبعد أن استعرض الموقف الدولي الحاضر ، وذكر المكتشفات والمخترعات التي يخدر بها الغرب أعصاب الشرق قال « ليس شيء الآن دليل قاطع على توجه العالم نحو المثل العليا ، بل إن موقف مجلس الأمن ازاء قضايا مصر وفلسطين واندونيسيا ليس مشجعاً ، ولعل انقسام الكرة الأرضية الى معسكرين من نتائج هذه الرجعية القائمة في أنحاء الدنيا » ولكن على الشعوب مهما كانت الظروف ألا أن تشق طريقها الى حياة النور ، وأن تعمل لتتغلب على المصاعب القائمة حتى تعرض شخصيتها وآمالها وأهدافها على العصر الذي تعيش فيه .

ثم قال : « سيكون طريقنا وعراً أمامنا ، والعقبات صعبة في صعودنا نحو الحرية والسلام ، ولكننا لن نرجع عن طلب معاملة الند للند ، وأن يعتبرنا العالم مجموعاً حيًا راقياً ، لنا من حق الرعية والمعاملة ما يملكه أي مجموع أوروبي راقٍ يسير نحو التطور . إننا نفضل أن نفنى جميعاً من أن يحاول العالم إرضاءنا بالعرض دون الجوهر أو يلهينا بالأقوال دون الحقائق . إننا نأخذ عقلية وأساليب أوربا لنتغلب على جبروت أوربا » .

(٥) وقف الدكتور قسطنطين زريق من القضية الفلسطينية وقفة الطبيب وقد تكشفت له أعراض الداء فرأى أن الأمم العربية ، منيت على يد اليهود والاميركان والروس والانجليز بكارثة لا نظير لها في تاريخ العالم ، وقال عنها أنها « نكبة » بكل ما في هذه الكلمة من معنى « ومحنة » من أشد ما ابتلي به العرب في تاريخهم « وقضية » لم يعرف التاريخ أعدل منها وأقرب الى الحق « واستهتار » صهيوني غايته إبدال وطن بوطن وإفناء قوم ليحل محلهم قوم آخرون . ثم أخذ يشرح معنى النكبة وفداحتها ، ويذكر واجب المفكر ، والمعالجة القريبة ، والحل السياسي ، والصراع بين المبدأ والقوة في قضية فلسطين ، حلاً هادئاً معقولاً وقد أبعد القارىء عن مواطن العاطفة ومثارات الوجدان ، وارتأى آراء غاية في الاعتدال بعد أن استعرض جميع العوامل البعيدة والقريبة ، الداخلية والخارجية أيضاً . قال لابد لرد الخطر الصهيوني من وضع قواعد لجهاد طويل الأمد تقوم على خمسة أركان (١) الاحساس بالخطر وإرادة الكفاح (٢) التعبئة العامة (٣) التوحيد بين جهود الدول العربية (٤) اشتراك القوى الشعبية . ويرى أيضاً أن الغلبة لا تكتب للعرب إلا إذا سلكوا سبيلها القويم ، وسبيلها تبدل أساسي في الوضع العربي ، وانقلاب تام في أساليب تفكيرنا وعملنا وحياتنا كلها ، وأن إرادة الكفاح لا تعد إلا بإرادة مثلها أو أقوى منها ، ووحدة الولاء لا تثمر إلا بوحدة أتم وولاء أشد ، وأن لا مهرب من اتحاد عربي ينتظم في دولة اتحادية

توحد فيهم سياستهم الخارجية والاقتصادية [1] وتطور اقتصادي واجتماعي وفكري ، ثم كيان قومي متحد تقدمي».

ليس وضع القواعد الاساسية في رأيي ، متطرفة كانت أو معتدلة هي كل شيء في كل حين ، إنما يجب لنجاح القواعد أن يكون واضعوها قادة حقيقيين وزعماء أصليين ، أي أن نفوسهم مفطورة على التقدم ، مطبوعة على قلب الأوضاع العتيقة البالية وإقامة أوضاع جديدة تساير روح العصر في كل شيء .

ثم وضع الدكتور زريق بعض قواعد للتقدم توائم أغراض البيئة والوسط الذي يعيش فيه يصلح بعضها لأكثر الأقطار العربية لأن مصر أدركت أكثرها وهي ما برحت مطردة التقدم وهي (١) اقتباس الآلة واستخدامها (٢) فصل الدولة عن التنظيم الديني (٣) تدريب العقل وتنظيمه بالاقبال على العلوم الوضعية والتجريبية (٤) فتح الصدور لاكتساب خير ما حققته الحضارات الانسانية من قيم عقلية وروحية .

ويختتم المؤلف الناريخ بحثه القيم باستنباط معنى لجهادنا في فلسطين فيقول « ليتعدى جهادنا الحاضر حدودنا الى العالم أجمع ، ويمتد من الحاضر الى آفاق المستقبل البعيدة ، ذلك أننا لا ندافع عن حقنا فحسب ، بل عن مبادىء تهم كل شعب من شعوب الأرض ، وتتخذ لدى الحكم العادل صبغة عالمية ، ومغزى تاريخيًا . وبذلك يتصل جهادنا بالجهاد الانساني خلال العصور في سبيل الحفاظ على القيم الباقية ، والحريات البشرية الأصيلة ، ومن حقنا نحن العرب أن نكشف عن هذا المعنى لنبين للعالم خطورة جهادنا لنضع أنفسنا في المركب الانساني المناضل عن الحق والمبدأ » . اهـ

(٦) عرف كل عربي مبلغ ما قاسيناه من نكبة فلسطين ، وعرفنا أن ثلاث ممالك من أقوى ممالك العالم ناصرت اليهود وساعدتهم في بناء دولتهم ومدتهم بقوات معنوية ومادية جعلتهم يتفوقون على العرب . ولكن هل من واجبنا الاكتفاء بما فعلناه أو الاستكانة لشذاذ اليهود ولمامات المتشردين ؟

ليس تقارب أميركا وروسيا في الرأي وفي الاعتراف بدولة اسرائيل بالاتفاق الطويل العمر ، ولا موقف الانجليز المذبذب ولا مراوغاتهم وألاعيبهم بالأسرار المكنونة التي لم تتضح بعد ، وليس في العالم دولة تعيش على الاستجداء كما تعيش دولة اسرائيل المتهافتة ولكنها ستعيش حقًا إذا تخلى اليهودي الأميركي والانجليزي والروسي والألماني والفرنسي

(١) لعل من الملومات ما يدعونا الى القول بأن تصاعد الصيحة لدى توحد الدول الخارجية في العراق وسورية ولبنان وشرق الاردن ، وان مسألة سورية الكبرى قد دفنت الى عهد بعيد .

وكل يهودي منتشر في أصقاع العالم عن جنسيته ووطنه ليستوطن فلسطين ويتجنس بالجنسية الاسرائيلية ، إذا حدث هذا فعندها يحق على العرب في فلسطين بما الاستسلام والرضوخ لليهود ، أو الهجرة الى ديار جيران اخوان لهم ؟ ولكن منطق العقل ، وقواعد الاقتصاد وعوامل الاجتماع تجعل أمر انضمام يهود العالم كلهم في صعيد واحد تحت راية اسرائيل في حكم المستحيل لسببين ، الأول : أنه ليس لليهود مزايا الأمة الموحدة ، والثاني: لأن لا رابطة لهم إلا رابطة الدين وألم الاضطهاد ، لذلك يرى الدكتور زريق أن النكبة التي حلت بنا إنما هي محك لوضعنا الداخلي الحاضر ، فاذا كانت عوامل الرجعية والانحلال هي المسيطرة علينا فان هذه النكبة ستزيدنا ضعفاً وانحلالاً وتمزقاً ، أما إذا كان لعوامل التقدم والنمو فينا بعض القوة فان الصدمة التي تلقيناها خليقة أن تعزز فينا هذه العوامل وتمشي بها قدماً بعزيد همة وتراكم أثر » .

(٧) نرى مما اقتطفنا من مؤلفي الكاتبين البارعين أحمد رمزي بك والدكتور قسطنطين زريق ، ومما اتجها اليه في بيان واضح في العرض ، وصدق صحيح في تقدير الواقع ، وثقابة فكر في وضع القواعد وسن الخطط ، وإهابة أمينة في توجيهنا وجهة الغرب ، وجرأة محمودة في مخاطبة الزعماء والحكام والقادة ، والدوي الذي أحدثاه في كل مكان واستماع القراء الى دعوتهم وتناول بحثهم بالدرس والاستيعاب ، وتداولهم أركانه وقواعده في المجالس الخاصة والمنتديات الاجتماعية ، يضاف اليه ما ذكرته في مستهل كلامي أنه الدليل على أن الأمة المصرية بخير ، وكذلك الأمم العربية ، وان ليس في استطاعة أحد أن ينكر علينا يقظة تامة ووعينا القومي الحقيقي ، وتنبهنا الى ما يدبره الغرب لنا ، ودأبنا في تحصيل علوم الغرب واتقان شرور الغربيين لنقاتلهم في الغد القريب ، بعلومهم وشرورهم يقظة ووعي ، وأخيراً أقول ليس في تقدمنا بطء نعاب عليه أو تقاعد نخشاه ونخافه ، انما أخشى ما نخشاه هو بث روح التخاذل فينا ، والاقلال من قيمة نهضتنا ، والحط من قدرتنا على فهم الحياة لأننا شرقيين .

حبيب الزحلاوي

في عالم الفلسفة

تأليف الدكتور أحمد فؤاد الأهواني صفحاته ١٧٠ صفحة من الحجم الكبير بمطبعة مصر الناشر مكتبة النهضة

هذا أحدث مؤلفات الدكتور أحمد فؤاد الأهواني أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد ، فقد أخرج قبل ذلك في العام الماضي كتاب « معاني الفلسفة » و « كتاب الكندي الى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى »

والكتاب جديد حقًّا في المكتبة العربية ، إذ يتناول مؤلفه موضوعات لم يسبق الحديث عنها في اللسان العربي ، أو كما يقول المؤلف في مقدمته «الفلسفة بحر لا يعرف له قرار يحتاج في معرفتها إلى العلم بما قاله القدماء ، وما ذكره المحدثون . وهو شيء لا تحيط به إلا المتون والمطوَّلات . وليس غرضنا الإحاطة الشاملة بكل ما يقال في الفلسفة قديماً وحديثاً . وإنما رأيت أن أضيف الى الموجود في اللسان العربي فصولاً لم يلتفت إليها غيري من المؤلفين ، فتلقي الضوء على بعض الجوانب المجهولة ، أو تزيد الناشريها بياناً . لذلك كان هذا الكتاب جرأة في عالم الفلسفة ، لا إحصاء لدقائق هذا العالم الفسيح . أو هو زهرات من بستان الفلسفة أقدِّمها للقراء باقة يشمون منها عبير الفكر » .

ولا ريب في أن فصول الكتاب مبتكرة . فهذا أول فصل في النحلة الأورفية التي أثرت أعظم الأثر في فيثاغورس وفي أفلاطون حتى لقد قال برتراند رسل في تاريخه للفلسفة « إن افلاطون يلبس مسوح النحلة الأورفية» . بل لقد أثرت الأورفية في المسيحية بما ذهبت إليه من التمييز بين النفس والبدن ، وأن النفس إلهية والبدن مصدر الشر . ويتحدث بعد ذلك عن مصدر هام من مصادر سقراط ، يغفله عادةً مؤرخو الفلسفة ذلك هو أرستوفان شاعر اليونان الهزلي الذي ألَّف تمثيلية السحب وسخر فيها من سقراط وأشاع عنه القول بانكار الآلهة مما كان سبباً في محاكمته فيما بعد . وهذا فصل عن أكاديمية أفلاطون ، وتاريخها المجهول كذلك ثم عن رأي أفلاطون في الله والعالم . ويختم القول في الفلسفة اليونانية بإله أرسطو المحرك الذي لا يتحرك

وفي عالم الفلسفة الإسلامية يتحدث المؤلف عن موضوعين كبيرين : أمواج الفكر الاسلامي خلق القول في الخوارج والمجسمة والشيعة والقدرية والمرجئة بطريقة جديدة لم يسبقه اليها أحد . أما الموضوع الآخر فهو نظرية المعرفة عند اخوان الصفا ، والغزالي وابن سينا ، والفارابي ، وهل المعرفة فطرية في العقل أم مكتسبة ، مع التحقيق والتدقيق

وفي عالم الفلسفة الحديثة يبدأ بعرض فلسفة هيوم ومذهبه في نفي الأسباب والمسببات مما كان داعياً الى إثارة الفيلسوف الألماني كانت . ثم يتحدث عن تقدير الجمال أهو شخصي أم موضوعي ، وللمؤلف في ذلك رأي جديد . ويعرض بعد ذلك الى علم حديث يدعى الميتا سيشيك أو ما بعد النفس ، ويفصل موضوعه وهو الكلام عن الروح وانتقال الفكر والكشف وما إلى ذلك . وينتهي بفصل عن المنطق الرمزي الحديث الذي ينتقد منطق أرسطو ، ويهدمه من أساسه .

فأنت ترى أن موضوعات الكتاب طريفة جديدة ، تفتح آفاقاً للتفكير ، وتضيف الى القراء ثروة في المعرفة ، مع الاطلاع على أحدث ما وصل اليه الفكر في العصر الحاضر .

صوت العالم

تأليف الاستاذ ميخائيل نعيمة — ينشر دار المعارف بمصر — القاهرة ١٩٤٨.

ميخائيل نعيمة لقيته في « البيادر » يحاول أن ينظر الى مشكلات العالم والانسانية من زاوية شرقية خالصة ، وهأنذا ألقاه في صوت العالم « مرة ثانية ، نفس الشفافية التي يحيط بها إطار من الحس الصوفي الذي يباريه المنطق الذهني ، ونفس السمات العربية التي تنبض بروح الشرق ، ولكن ثمة اختلاف بين البيادر . و « صوت العالم » مرجعه الى الفوارق البادية بين النطاقين ، ففي « البيادر » يعرض لمشكلات الشرق العربي ، وفي « صوت العالم » يربط هذه المشكلات باتجاهات الفكر الانساني كلٍّ ، ومن هنا تختلف وجهة النظر ، ومن ثم يختلف تقدير الناقد ، فما هي تفاصيل الخلاف ؟ . .

تفاصيل الخلاف تنحصر أولاً في تسمية الكتاب بعنوانه ، يوحي للقارىء أنه سيلقي حلا للقضايا الانسانية الكبرى التي يرتفع بها صوت العالم . فاذا ما قرأ الكتاب ، انتهى من ذلك بأن المؤلف يحاول أن يربط المستقبل بالماضي في أسلوب جميل ، مؤداه ماتفاذ الى الحقائق الواقعة في الزمن الراهن ، ونعني بها وقوف الدول على مفرق طريق ، ينتهي بها الى خطين متوازيين ، أحدهما يقوم على نظرية المادية الجدلية Materialism Dialectique والآخر قائم على أساس من النظرة الانسانية التي تتفرع منها المذاهب السياسية المعاصرة التي تقف أمام الشيوعية وجهاً الى وجه . هل يلتقي الصنوان ؟ كيف يتفاقم الخلاف بينهما ؟ وما هو مصير الانسانية ؟ . هذه هي القضية الكبرى التي يرتفع بها صوت العالم ، ولكن الكاتب آثر أن يحصر صوت العالم في زوايا أخرى غير هذه ، فربط الماضي بالمستقبل كما أسلفنا وراح يعالج قضايا يمكن أن تضاف الى البيادر ليستكمل الكتاب بعض الحلقات الناقصة .

وهذا يبدو واضحاً في قضية الشرق والغرب وهل ثمة التقاء بينهما ، وقد عرض فيه للقاح المستمر بينهما ، وما يستتبع ذلك من تبادل في أساس المعرفة والثقافة ، ثم في قضيته عن رسالة العالم العربي ، التي يعرض فيها للمستقبل الذي ينظر للعالم العربي أن يقوم به ، وما نحسبه — في رأينا — إلا مهيأ لدور روحاني كبير . وثمة فصول عالجها في نفس الطابع الذي بيناه عن مستقبل الانسان ، وعن أزمة التسيير العالمي التي ستنتهي — في نظره — بارتباط كوني يوحي إليه الحاضر وتؤيده اتجاهات الفكر الانساني .

وبقي بعد هذه العجالة السريعة أن نحدد قيمة كتابه ، وكل ما يقال فيه أنه صوت يرتفع لأحد اتجاهين في واقع البشرية ، طريق الانسان الروحي ، الذي يريد أن ينظر طريق الإنسان المادي ، وقد عرض فيه الكاتب لوجهة النظر الواحدة هذه ، وكل ما ينقصه شيء من الموازنة ، لتتعادل كفتا الميزان .

صوفي عنبي

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الرابع عشر بعد المئة من المقتطف

٧٣ الروحانية وتطورها عند البدائيين وفي العصر القديم : اسماعيل مظهر

٧٦ بترول الشرق الأوسط يزداد مقامه في خارطة البترول العالمي : وديع فلسطين

٨٠ مغنّية : « قصيدة » بشار بن برد

٨١ الشيخوخة وطول العمر : الدكتور عبده رزق

٨٩ نظرات في النفس والحياة : نظرات لورد بيكون : ع . ش

٩٩ أسف « قصة » للكاتب الفرنسي جي دي موباسان : ترجمة الآنسة نعمت حسني

١٠٦ بعث « قصيدة » : محمد مفيد الشوباشي

١٠٧ جولة في الأحقاف والشروق : مصطفى عبد اللطيف السحرتي

١١٧ العاشق الأسير « قصيدة » عفيفي محمود

١١٨ لحن أرجنتينا : يوسف جبرا

١١٧ آراء في العظماء والعظمة : لأميل لودفج : ترجمة مبارك ابراهيم

١٢٩ راقصة البوليرو « قصيدة » : عدنان مردم بك

١٢٩ صور شتى في شرق اسبانيا : محمد رجب البيلي

* * *

١٣٧ مكتبة المقتطف « كتاب وكتاب بقلم حبيب الزحلاوي ، وعالم النفسية ، بيروت العلم : صبحي شقير

لحق المقتطف

٥٧ رسالة الشاعر : ابراهيم الابياري

ابراهيم الأبياري

رسالة الشاعر

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم
١٩١٩

المتنابزون

الدكتور الفريد ... جرير

التقى المسلمون في «صفّين» شيعتين، إحداها تظاهر «عليًّا» والأخرى تناصر معاوية. واستحرّ القتل بينهم حتى بلغ أشدّه ليلة الهرير، فرفعت المصاحف، ونادى الشاميون: كتاب الله بيننا وبينكم. ويصدقك النجاشي بن الحارث حين يقول:

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا عليه كتاب الله خير قُرانِ

ونادوا عليًّا يابن عمّ محمد أما تتقي أن يهلك الثقلان

وانتهى الفريقان الى تحكيم حَرٍّ إلى خروج خارجة على عليّ وبقيت الأمور الى اضطراب أحسّ نفرًا من الخوارج: ابن ملجم، والبُرك، وزادويه، أجمعوا أمرهم على أن يقتلوا عليًّا، ومعاوية، وابن العاص.

ويشاء القدر أن يُصيب ابنُ ملجم ويُشوي صاحباه. ويخلو معاوية بالحسن، فينزل له الحسن عن الأمر جنوحًا للسلم وحقنًا للدّم. ولكنه لا يلبث أن يتجرّعها مصومة فتفري أحشاءه فريًا لا يخطو معه إلى شفاء.

ويدخل معاوية الكوفة خليفة، فيرغب إليه الراغبون، ويصوّب سَرَبه الطامعون. وينحاز عنه آخرون ممن لهم هوى في بني هاشم.

* * *

ذلك أمر الناس والأخطل وصاحباه الى ظهور. ويدركه الأخطل ساقطًا. وتصل الأيام حبلَه بحبل يزيد بن معاوية، ومعاوية مع الملك يُصرّفه. ويرى الأخطل الأسباب تُريده على أن يحيا لهذا البلاط فيحيا له.

ونحب أن نرُدّك الى بيان ووضوح ، فنذكر لك أن صوت الراغبين عن معاوية أخذ يعلو . وهذا شعراؤهم طوروهم . وكان لمعاوية حِلم ضُرب به المثل . فوثب عبد الرحمن بن حسان وثبته التي هاجت يزيد حين سمع له شعراً في التشبيب برملة أخته . واستمدى عليه أباه فلم يُمده .

ولم يجد يزيد من شيعته غير كعب بن جعيل التغلبي ، وكعب تمنعه حنيفيته أن يقول في الأنصار . فيضم يزيدُ إليه الأخطلَ ، وما عليه من حرج أن يقول :

لعن الإلـه بني اليهود عصابةً بالجزع بين جُلاجل وصرار

(جلاجل وصرار : موضعان)

قوم إذا هدر العصيرُ رأيتَهم حمراً عيونهم كجمر النار
ذهبت قريش بالمكارم والعُلَى واللؤم تحت عمائم الأنصار
فذروا المعالي لستمُ من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجّار

(المساحي : جمع مسحاة ، وهي آلة يفتر بها)

واذا نسبت ابن القُريعة خلتَهُ كالجُعْل بين حمارة وحمار

(ابن القريعة : حسان بن ثابت)

وثارت ثائرة الأنصار واستنصفوا معاوية ، وهمّ معاوية أن يفعل ، فحمى يزيد الأخطل ودفع عنه . وكانت التي بلاها الأخطلُ يزيد . فلما أمن معها العطب وذاق الأمن أجرى لسانه بشكره :

ولولا يزيد ابن الملوك وسَيبُه تجلّلت حدباراً من الشر أنكدا

(الحدبار : الناقة الهزيلة)

وكم أنقذتني من جَرُور حبالكم وخرساء لو يرمى بها الفيل بلّدا

(الجرور : البئر العميقة . والخرساء : الداهية . وبلد : لصق بالارض لذ دهشه)

أبا خالد دافعت عني عظيمة وأدركت لحمي قبل أن يتبددا

(أبو خالد ، كنية يزيد)

وأطفأت عني نار نعمان بعد ما أغذّ لأمرٍ ماجزٍ وتجرّدا

(نعمان، هو ابن بشير الانصاري. وكان رسول الانصار السماوية في غارة الاخطل. وأغذ: أسرع. ولأمرٍ ماجز، أي شديد يعجز صاحبه)

ولما رأى النعمان دوني ابن حُرّةٍ طوى الكشح إذ لم يستطعني وعرّدا

(طوى الكشح: أضمر العداوة. وعرد: هرب)

وما وجدت فيها قريش لأمرها أعفّ وأوفى من أبيك وأمجدا

وأصلب عوداً حين ضاقت أمورهم وهمّت معدٌّ أن تخيم وتخمدا

(معد، يريد العرب. وتخيم: تجبن)

فأصبحت مولاها من الناس بعده وأحرى قريش أن يهاب ويحمدا

فأقسمت لا أنسى مدى الدهر سيّبه غداة الليالي ما أساغ وزوّدا

(ما أساغ، أي ما أساغني ريقاً، أي فرج كربتي. وزود، أي زودني بخير)

هذه واحدة عرف فيها الأخطل أيّد صاحبه وسُنّته، وأحسّ أنه يأوي إلى ركن شديد. ثم أترى الأخطل، وهو بين هاشمية وأمويّة، يختار غير من اختاروه؟

عرف ذلك الأخطل فنصّب نفسه للامويين شاعراً يذود عنهم، ومن ورائه قومه يشدون أزره، وينصرون من ناصره. ولم تكن تلك الأيام التي خاضوها مع القيسيين في مرج راهط إلاّ تثبيتاً لملك المروانيين، وتثبيطاً لمن همّوا بهم وأرادوا أن يديلوا عليهم.

ويعرف الأخطل أيادي قومه فيضمنها شعره في عبد الملك:

بني أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هُمُ آووا وهم نصروا

(يشير الى هجاء الانصار)

ألحمت عنكم بني النجار قد علمت عُليا معد وكانوا طالما هدروا

(عليا معد: قريش. وهدروا: أكثروا من الكلام)

حتى استكانوا وهم مني على تمضٍ والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

وقد نُصرتَ أمير المؤمنين بنا لما أتاك ببطن الغُوطة الخَبرُ

يُعرّفونك رأس ابن الحباب وقد أضحى والسيف في خيشومه أثرُ

(ابن الحباب، هو عمير بن الحباب، وهو الذي كان يؤلب على عبد الملك وفتنه فقتل اتقاء لشره)

والحارث بن أبي عرف لعبشن به حتى تعاوره العيقبان والنسر
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصاً فايسوك جهاراً بعد ما كفروا
فلا هدى الله قيساً من ضلالتهم ولا لها لبني ذكوان إذ عثروا

(لا لها لبني ذكوان ، أي لا أقامها الله . وذكوان : رهط عمير بن الحباب من سليم)

ولا الشباب إذا اخضرت عيونهم ولا عُصيَّة إلاَّ أنهم بشر

(اخضرت : اسودت . وعصية : بطن من سليم)

وقد أصابت كلاباً من عداوتنا إحدى الدواهي التي تخشى وتنتظر
أما كليب بن يربوع فليس لهم عند التغارط إرواد ولا صدرُ

(التغارط : التقدم الى الماء)

ومضى عبد الملك وخلفه ابنه الوليد . ولأمر ما يفتقد الأخطل ما كان له عند من سبق، ولا يعود مشفعاً في أمور قومه وخاصته . ولا يملك هو فكاكاً مما شدَّ نفسه إليه، ويبقى على ولائه للأمويين فيقول مستعطفاً :

بني أمية قد أجدت فواضلكم منكم جيادي ومنكم قبلها نعمي
فإن حلفت لقد أصبحت شاكرها لا أحلف اليوم من هانا على أثم
وقد علمتم وإن أصبحت نائيكم نصحي قديماً وفعلي غير متهم
لقد خشيت وشاة الناس عندكم ولا صحيح على الأعداء والكلم

وتنوبه وقومه الغرامات ، وتؤده الآئدات فلا يملك غير أن يشكو :

وإنها معشر نابت علينا غرامات ومُعضلة كؤودُ
وعضَّ الدهر والأيام حتى تغيَّر بعدك الشَّعر الجديد

(أي شابه)

* * *

ويحملها الأخطل سنين خمساً عجافاً ، لم يملك فيها غير لسان المستعطف توافيه بعدها منيَّته فيمضي بقول جرير :

زار القبور أبو مالك فكان كألأم زوَّارها

ستبكي عليه دَرُوم الشتاء خبيثٌ تَلَثَّم أسحارها

(الدروم . التي تدور بالليل وتتبع القبيح)

نوح بناتُ أبي مالك بسُوق النصارى وزمّارها

* * *

ولنترك الأخطل الى حين . ولنأخذ معك في حديث الفرزدق .

فهو ، كما في حفظك ، أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة ، دارميٌّ ، تميمي . لأبيه وجدّه ذكرٌ بين الأجواد . فيروون أن صعصعة بذل من ماله في فداء ثلاثين موءودة . وقد ذكرها له الفرزدق وأكثر في مثل شعره :

وجدّي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد

وعرفت لغالب كف نديّة وبرّ بالاضياف تحدّث به الفرزدق في رثائه له :

نعم أبو الاضياف في المحل غالبُ إذا ليس الغادي يديه من البَرْدِ

وما كان وقّافاً على الضيف مُحجماً إذا جاءه يوماً ولا كابيَ الزند

وكان إذا ما أصدرتْه مكارم وساور أخرى غير مُجتنح الوِرْد

*

ومن حيث بدأ الأخطل بدأ الفرزدق . وإن كادت سوابق الحوادث لتجنح به الى غير ما شُغل به . فقد عُرف مَيلُ قومه الى الأخذ بناصر « عليّ » فيما ثار بينه وبين عائشة . واستبان هواهم العلوي حين تقسمت الأهواء بين « علي » ومعاوية . وكانت لغالب على « عليّ » وفدة مقدمه الكوفة وفي يده ابنه الفرزدق . ويروون أن « عليّا » حبّب الى الأب أن يأخذ ابنه بحفظ القرآن .

علويّة لاينال منها إلاّ وقفة « لضبة » أخوال الفرزدق إلى صفوف عائشة يوم الجمل.

وما آلت الكلمة لمعاوية ، واستوى ولاته على الكوفة ، حتى جرى الدارميون قوم الفرزدق فيمن جروا يبايعون . ولعلهم اشتروا الأمن بكلمات لاتجد لها صدى في القلوب .

وما نعرف للفرزدق علوية صريحة إلاّ مع قوله يمدح زين العابدين :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحلُّ والحرمُ

هـذا ابن خير عباد الله كلهم هـذا التقي النقي الطاهر العلمُ
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهلَه بجدِّه أنبياءُ الله قد ختموا

ومنها :

من يشكر الله يشكر أوليّـة ذا فالدين من بيت هذا ناله الأممُ
يُـنمى الى ذروة الدين التي قصرت عنها الأكف وعن إدراكها القدمُ
منتقة من رسول الله نبعته طابت مغارسه والخيم والشيَمُ

ومنها :

من معشر حبهم دينٌ وبغضهم كُفر وقربهم منجى ومُعتصمُ
مقدَّم بعد ذكر الله ذكرهم في كل بدء ومختومٌ به الكلمُ
إن عُـد أهل التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض قيل همُ

*

وقد أغضبت هذه «هشاماً» فحبسه . ففزع الفرزدق بقوله فيه :

رأيت بني مروان يرفع ملكهم ملوك شباب كالأسود وشيبها
بهم جمع الله الصلاة فأصبحت قد اجتمعت بعد اختلاف شعوبها

ومنها :

عسى بيدي خير البرية تنجلي من الأزمات الغبر عنا خطوبها
إذا ذكرت نفس ابن مروان صاحبي ومروان فاضت ماءَ عيني غروبها
رأيت بني مروان إذ شعثت العصا وهنّ من الطرب النوائح كلبها
شفوا ثائر المظلوم واستمسكت بهم أكف رجال رُدّ قسراً شغوبها
جزى الله خيراً من خليفة أمة إذا الريح هبت بعد نوء جنوبها

ويقطع هشام منه بهذا فيعود الى برّه ويخلي سبيله .

ولا نكاد نعرف الفرزدق غير هذه يلفتنا فيها الى هاشميته . أما سائر شعره في مدح الأمويين ، جرى معهم من شبه الى دبه فأكثر :

إذا لاق بنو مروان سلموا لدين الله أسيافاً غضابا
صوارم تمنع الاسلامَ منهم يوكل وتمنعُ عمن أرادا

بهنّ لقوا بمكة ملحديها ومسكن يحسنون بها الضرابا

(يشير الى الوقعة التي كانت بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير في مسكن موضع قريب من اراانا على نهر دجيل)

فلم يتركنَ من أحدٍ يصلي وراء مكذّب إلاّ أتابا

قال في ملوكهم ملكاً بعد ملك، لم يقصر ما ملك أن يطيل، ولم ينقص ما قدر أن يفي.

مدح عبد الملك، وهو عنه بعيد، ما وفد عليه ولا نسمه مجلسه، فقال:

يأيها الراكب المُزجي مطيته يريد مجمع حاجات الأراكيب
إذا أتيت أمير المؤمنين فقل بالشّحم والعلم قولاً غير مكذوب

ويذكر صولته وما عرف لآله من بطش أرغم الخارجين عليه:

أما العراق فقد أعطتك طاعتها وعاد يعسر منها كل تخريب
أرض رميت إليها وهي فاسدة بصارم من سيوف الله مشبوب
فالأرض لله ولأهـا خليفته وصاحب الله فيها خير مغلوب
بعد الفساد الذي قد كان قام به كذّاب مكة من مكر وتخريب

(يريد عبد الله بن الزبير الذي ادعى الخلافة بمكة وملأه غدر من العراقيين)

ومدح الوليد بن عبد الملك وما زاره ولا وطيء أعتابه:

اليك أمير المؤمنين أخّتها الى خير من حُلّت لعُقد الرّحل
إلى خيرهم فيهم قديماً وحادثاً مع الحلم والايمان والنائل الجزل
ورثت أباك الملك تجري بسمته كذلك خوط البيع ينبت في الأصل
كداود إذ ولى سليمان بعده خلافته نحلاً من الله ذي الفضل
يسوس من الحلم الذي كان راجحاً بأجبال سلمى من وفاء ومن عدل

ثم ينتهي من مدحه الى السّيل من خصومه وتنفيه ما هموا به:

فمن ذا الذي يرجو الخلافة منهم وقد قمت فيهم بالبيان وبالفضل
فبينت أن لا حقّ فيها لخاذل تربص في شك وأشفق من مَثْل

(المثل: التنكيل)

وقد خذلوا مروان في الحرب وابنه أباك وأدلوا فيهما مع من يدلي

ثم يصل ما انقطع ويعود الى مروان :

ففزت بما فازا به من خلافة وزدت على من كان قبلك بالحمل

بعافية كانت من الله جللت مشارقها أمناً الى مغرب الأمل

(الأمل : منقطع جبال الرمل . يريد أقاصي الحدود)

وكنت المصفى من قريش ولم يكن لوطئك فيهم زيغ كعب ولا نعل

ويخرج الى سليمان بن عبد الملك مادحاً سائلاً :

يابن الخلائف لم تعهد أحداً يبقى لحسر نوائب الدهر

إلاّ الرواسي وهي كائنة كالعين وهي سريعة المرّ

أحييت أنفسنا وقد هلكت وجبرت منا واهيَ الكسر

فلقد عززنا بعد ذلتنا بك بعد ما نأبي من القسر

ويؤم ساحة عمر بن عبد العزيز في مثل ما أمّ له سليمان من قبل :

وساقنا من قنا يزجي ركائبنا اليك منتجعَ الحاجات والقدر

(قنا : موضع بالحجاز)

وحاجات ثلاثٌ ما تركنَ لنا مالاً به بعدهنّ الغيث ينتظر

ثنتان لم تتركا لحماً وعاظمة بالعظم حراء حتى اجتيحت الغرر

(الحراء : السنة الشديدة)

فقلت كيف بأهلي حين عضّ بهم عامٌ له كل مالٍ مُنعق جزر

(منعق : ما يصاح به . وجزر : مباح الذبح)

عام الى قبله عامان ما تركا مالاً ولا بلّ عوداً فيهما مطر

*

فصُجتها قِبَل الأخبار منزلةً والطيبي كل ما التاثت به الأزر

(التاثت به : التفت)

سيروا فإن ابن ليلى من أمامكم وبادروه فإن العُرف مُبتدر

وبادروا بابن ليلى الموت إنّ له كفين ما فيهما بخل ولا حصر
أليس مروانُ والفاروقُ قد رفعا كفّيه والعود ماء العرق يعتصر

ويلي هشام الأمرَ والفرزدق قد خلّف الثمانين أو كاد ، فيحبو إليه من العراق ، وبقلبه أن هشاماً لا يزال واجداً عليه لمدحه زين العابدين . فايتربصها ويلات إن لم يسع إليه يكيل له المديح :

يقول بنيّ هل يك من رحيل لقوم منك غير ذوي سوام
فتنهض نهضة لبنيك فيها رِغىً لهمُ من الملك الشآمي
فقلت لهم وكيف وليس أمشي على قدميّ ويحكم مرامي
وهل لي حيلة لكمُ بشيء إذا رجلاي أسلمتا قنامي
رمتني بالثمانين الليالي وسهم الدهر أصوب سهم رامي
أقول لناقتي لما تراءت بنابيد مربلة القتام
أغيثي من وراءك من ربيع أمامك مرسلٍ بيدي هشام
يدي خير الذين بقوا وماتوا إماماً وابن أملاك عظام
به تحيا البلاد ومن عليها من النعم البهائم والأنام
حملت إليك خير الناس حيًّا لتنعش أو يكون بك اعتصامي
الى ملك الملوك جمعت همي على المتردمات من الشّمام
يداك يدٌ ربيع الناس فيها وفي الأخرى الشهور من الحرام
فإن الناس لولا أنت كانوا حصى خرز تساقط من نظام
وبشرت السماء الأرض لما تحدّثنا بإقبال الإمام

وما نريد أن نشق عليك فنعرض لك غير هذا مما مدح به الأمراء والقادة والسادة . فالخطب فيه يسير ، ولنا فيه بعد جرير حديث .

*

ويكاد جرير يشرك الفرزدق عمره ، فقد انتهى معه إلى العام الذي قضى فيه ، لم يهنأ بالحياة بعده إلاّ أياماً أربعين أو ثمانين .

لكنه لم يبدأها سمه ، فنحن نعرف الفرزدق يوم سحب أباه إلى « عليّ » . ونعرف مولد جرير بين العامين الثامن والعشرين والثاني والثلاثين ، ويكاد يدلنا هذا على أن الفرزدق سبق جريراً بسنين لا تزيد على العشر كثيراً .

*

والأمر هنا صورة منه هناك مع الفرزدق ، فقد عاش جرير للمروانيين يذكرهم فيشيد :

يا آل مروان إن الله فضلكم ... فضلاً قديماً وفي السعاة تقويمُ
قومٌ أبوهم أبو العاصي فأورثهم ... جُرثومةً لا تسامیها الجراثيمُ
قد فات بالغاية العليا فأحرزها ... سامٍ خروجٌ إذا اصطكّ الأضاميمُ
يحمي حماهُ بجرّارٍ له لجبٍ ... للأرض من وَأْده فيها هماميمُ
ما الملكُ منتقلٌ منكم إلى أحدٍ ... ولا بناؤكم العاديّ مهدومُ

ويقول في عبد الملك يمدح ويسأل :

تعزّت أم حزرة ثم قالت ... رأيت الموردين ذوي لقاح
تعلل وهي ساغبةٌ بنيها ... بأنفاسٍ من الشّبم القراح
سأمتاح البحور فجنبيني ... أذاة اللوم وانتظري امتياحي
تقي بالله ليس له شريكٌ ... ومن عند الخليفة بالنجاح
أغثني يا فداك أبي وأمي ... بسيبٍ منك إنك ذو ارتياح
فإني قد رأيت عليّ حقًّا ... زيارتيَ الخليفة وامتداحي
سأشكر إن رددت عليّ ريشي ... وأثبتُ القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

ويملك الوليد بن عبد الملك فلا ينسى نصيبه من برّه وعطائه :

إني لمعتمد الخليفة زائراً ... وأراه أهل زيارتي وتعرّضي
ليس البريّ كمن تعرّض قلبه ... فأنا المشايع قلبُه لم يعرضِ
فوثقتُ ما سلم الخليفة بالغنى ... ليس البحور إلى الثماد البُرّضِ

(البرض : الماء القليل .

بحرٌ تفيض له سجالٌ بالندى ... وإليه جارية البحور الفُيّضِ

يجزيك ربُّك حُسن قرضك إنه حَسَن المعونة واسع المتقرَّض
والله قَدَّر أن تكون خليفةً خير البرية وارتضاك المرتضي

ويمضي الوليد ويخلفه سليمان ، فينهض اليه منشداً :

سليمان المبارك قد علمتم هو المهديُّ قد وضح السبيلُ
أجرت من المظالم كل نفس وأدَّيت الذي عهد الرسول
صفت لك بيعة بثبات عهدٍ فوزن العدل تأسخ لا يميل
إذا ابتدر المكارم كان فيكم ربيع الناس والحسب الأثيل
عرفتم كل رابية وفرع وغيركم المذانب والهجول

*

وما يستقر عمر بن عبد العزيز حتى يتعجله البرّ ، جاعلاً من المدح سبيله :

إن الذي بعث النبي محمداً جعل الخلافة في الإمام العادلِ
قد نال عدلك من أقام بأرضنا فاليك حاجة كل وفد راحل
اني لآمل منك خيراً عاجلاً والنفس مولعة بحب العاجل
والله أنزل في الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل

*

ويخلف يزيدُ عمرَ فلا يعيا عن القول :

لما ملكت عصا الخلافة بينت لطالبين شمائل ونجارُ
ساس الخلافة حين قام بحقها وحمى الذمار فما يضاع ذمار
ويزيد قد علمت قريش أنه عمر البحور الى العلا سوّار
وعروق نبعتكم لها طيب الثرى والفرع لا جعد ولا خوّار
إن الخليفة ليتامى عصمة وأبو العيال يشقه الإقتار

ومن بعد يزيد هشام وجرير على بابه ينشد :

لو ان الله فضّل سعي قوم صفت لكم الخلافة والعهود
على سهل تمكن في قريش لكم عظم الدسائع والوُفود
هشام الملك والحكم المُصفّى يطيب إذا تزلت به الصعيد

يعم على البرية منك فضل ... وتطرق من مخافتك الأسود
وإنّ أمل الضلالة خالقوكم ... أصابهم كما لقيت ثمود

*

وهكذا لم يخص جرير خليفة دون خليفة . شأن سابقيه . واتصل بعد هذا بأمراء بني أمية وقوادهم . كما لم يفتن على نفر من وجوه القوم بما جادت به قريحته . فمدح العباس ابن الوليد وسلمة بن عبد الملك والحجاج والجنيد بن عبد الرحمن المري . وعبد الله بن عمرو ابن عثمان والمهاجر بن عبد الله الكلابي ونفراً آخرين .

* * *

هذه صفحات ثلاث ، جمعت لك فيها عن الشعراء الثلاثة أكثر ما يعنينا عنهم، وخلفت ناحيةً تقائضهم التي عُرفت لهم وشاعت عنهم ، حتى إن محدثاً يكاد لا يذكرهم إلاّ بها . فتلك هنّة من الشر خلقتها المنافسة بين ابني العم : الفرزدق وجرير . وأذكى الناس نارها . ولا يفوتك ما حبا الملوك به من فعل أو قول ، وما أثنوا به وعابوا . فلسل هذا افترق الناس ولا يزالون يفترقون .

ولا أنصبك كثيراً إذا عرّفتك قبل هذا أن الفرزدق كان ينزع الى الهجاء صباه . هاجى غير واحد . ثم زهد في الشر وهمّ أن يحبس نفسه للقرآن يتدبره . وإذ به يُحرّك لما عافه ، وينتهي إليه أن الشر بين جرير والبعيث المجاشعي قد استشر ، وأن جريراً نال من البعيث في حرمات ذويه .

فيهب لجرير ولسانه ينشد :

أنا الضامن الراعي عليهم وإنما ... يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي
ونوضع ما قالوا ارتعَ منا وجدّهم ... شعاعاً على الغالي من الحسب الجَزْل
ولست إذا ثار الغبار على امرىء ... غداة الرهان بالبطيء ولا الوَغْل
ولولا حياء زدت رأسك هزمةً ... إذا سُبرت فلّت جوانبها تغلي

ثم يتحمّس للأمر ويكشف عن قناعه ، فيقول :

دعاني ابن حمراء العجان ولم يجد ... له اذ دعا مستأخراً عن دعائيا
فنغّصت عن تمّيه حتى تقسّما ... وقلت له لا تحش شيئاً ورائيا

وأخيراً ، جلس السيد ساڤاج بالقرب من المرقد . وجعل يدفىء قدميه على النار ، ولم يزل غارقاً في التفكير .

لا شك في أن حياته كانت فاشلة ، فاشلة كل الفشل . ومع ذلك ، فانه أحب . إنه أحب سراً .. وكان في حبه كسولاً معدماً ، بسبب تهله المميت ، كحاله في كل شيء .. أجل ، فقد أحب فيما مضى .. أحب صديقته العجوز ، مدام ساندر . زميله القديم ، ساندر . آه ! لو أنه عرفها فتاة لم تتزوج ! ولكنه فاتها متأخراً جداً .. وقد تزوجت رفيق صباه ! لو أنه رأى تلك الفتاة ، لتزوج منها . ليس في ذلك من شك ! فكم أحبها ، وأفرط في حبها للنهاية لقد أحبها يوم أن رآها المرة الأولى .

انه يتذكر الآن ، تأثره كلما كان يراها .. وجزعه وحزنه ، عندما كان يتركها . ثم تلك الليالي التي كان يقضيها مسهداً يفكر فيمن أحبها قلبه .

كان دواماً يستيقظ في الصباح ، وهو أتعس هياماً بها منه في المساء ، وقد اشتدت جذوة غرامها وهيجاً في فؤاده . ولماذا ؟ لا يدري !

كم كانت مدام ساندر ، جميلة فيما مضى .. كانت لطيفة ضاحكة .. شقراء ذات شعر ذهبي ! أما ساندر ، فلم يكن بالرجل الذي يستحقها ! ... انها الآن ، في الثامنة والخمسين من عمرها .. تبدو عليها السعادة . آه ! لو كانت هذه قد أحبته فيما مضى ! أجل ، لو كانت أحبته ! ولم لا تكون قد أحبته ، فانه أحبها . لم لا تكون مدام ساندر ، قد أحبت ساڤاج ، الذي أحبها حباً جماً ؟

ألا ليتها فطنت ، حزرت شيئاً ! .. ترى ، ألم تلحظ شيئاً بالمرة .. ألم تفهم أنه يكن لها كل هذا الحب ، الذي استأثر بقلبه وعقله ؟

إذن ، فما كان يقادر الى تفكيرها ، لو أنه باح لها بحبه ؟ وبماذا كانت تجيبه ؟

وكان ساڤاج ، ينأى نفسه عن آلاف الأشياء الأخرى ، فهو في هذه اللحظة ، يعيش حياته مرة ثانية ، ويحاول أن يحظى بالكثير من التفصيلات ، التي أشكلت عليه من قبل ، وتعذب في تفهمها !

كان يتذكر تلك السهرات الطويلة ، التي كان يقضيها عند ساندر ، في لعب الورق ،

حيما كانت زوجته صغيرة فاتنة . كان يستذكر كلماتها . . وابتساماتها الصامتة ، التي توحي الى أفكار كثيرة !

كان يستذكر تلك النزهات الجميلة ، عندما كان يذهب ثلاثتهم — الزوج والزوجة والصديق — في رياضة على شاطىء السين . وعندما كانوا يتناولون طعامهم ، فوق العشب الأخضر في يوم الاحد . وكان ساندر حينذاك موظفاً ، في ديوان المضبطة . وفجأة ، عاودته ذكرى ، تراءت له صافية . ذكرى يوم أمضى شطره الأخيرة في صحبتها . صحبة من أحبها قلبه ، في غابة صغيرة ، تمتد على شاطىء النهر .

كانوا قد توجهوا سباحاً ومعهم طعامهم في حزم ، تأنقت الزوجة الصغيرة ، في لفها وحرمها . وكان يوماً ضاحياً من أيام الربيع . يوماً من تلك الأيام التي تثمل الحواس وتبهر العقول بسحرها ، وتتفتح فيها القلوب ، للحب والجمال . كل شيء له أريج طيب . وقد بدا مرحاً سعيداً . كانت العصافير تغرد على الأفنان ، فرحة طروبة ، وتصفق بأجنحتها في حبور ومرح . وتذكر ، ثم تذكر . . . تذكر وهم يتناولون طعامهم ، على العشب الأخضر تحت أشجار الصفصاف ، بالقرب من المياه التي التحفت صفحتها المتماوجة ، ببريق الشمس . كان الهواء دافئاً ، مليئاً برائحة العصارة النباتية . وكانوا ينشقونه مستمتعين بالسعادة . آه ! لكم كان جميلاً ، ذلك اليوم !

كان ساندر ، قد نام بعد الأكل ، فوق العشب . . وقال عندما استيقظ : « انها أجمل غفوة تذوقتها في حياتي » .

كان ساندر الشاب ، قد استلقى على ظهره ، فوق العشب اللين ، يطلب النوم ، في ذلك النسيم الساحر . واستندت مدام ساندر ، الى ذراع ساقال ، وأخذا يعشيان هوينا ، على شاطىء النهر .

كانت تضحك في سرور . وكانت تقول : « اني سكرى يا صديقي . . سكرى بهذا الجمال . سكرى للغاية » فكان ينظر اليها ، وهو يرتعد حتى القلب . وأحس أنه قد شحب لونه . وداخله الشك ، أن تكون عيناه قد أفصحتا عما يعانيه فؤاده من لوعة الهوى . أو أن رعشة من ذراعه ، قد فضحت سره .

كانت مدام ساندر الشابة ، قد صنعت تاجاً من الحشائش الطويلة ونرجس الماء . زينت به رأسها البديع . وسألته : «أتحبني هكذا ؟» . يالله ! كيف احتمل هذه الكلمة ، ولم يفتضح أمر حبه الدفين ! أما كان أحرى به أن يقع على ركبتيه عند قدميها ! أما كان أحرى به أن يبوح لها بالحب ، الذي ملك عليه مشاعره ، وتغلغل في كل قطرة من دمه ؟ .

ولما ألفته ساكتاً ، ولم يجبها بشيء . جعلت تضحك . وكان الكدر ظاهراً في ضحكتها ، وهي تقذفه بالتهم : «أيها الحيوان الكبير . هيا ! ألا تتكلم على الأقل !» . أما هو ، فكان على وشك أن يبكي ، ولا زال متعذراً عليه الكلام !

كلّ هذا ، مرّ الآن بذاكرته ، واضحاً كل الوضوح . كما لو أنه حدث في هذا اليوم . لماذا قالت له ذلك : «أيها الحيوان الكبير ، هيا ! ألا تتكلم على الأقل !»

وتذكر أيضاً ، كيف كانت تستند إليه في حنان . وبينما كانا يمرّان تحت شجرة تقوّس جزعها . فانه أحسّ أن أذنها ، قد لمست خده . فتقهقر فجأة خوف أن تظنه متعمداً هذه الملامسة ، وتذكر

وتذكر أيضاً ، عندما قال لها : «أما آن لنا أن نعود ؟» فانها أرسلت إليه نظرة عجيبة . مؤكد ، أنها نظرت إليه نظرة فاحصة . لم يعرها إذ ذاك أي تفكير . ولكن ، هاهو الآن يفكر في تلك النظرة . وفيما كانت ترمي إليه ! وتذكر مدام ساندر ، وقد قالت له في وجوم :

كما تريد يا صديقي . فلنعد لو كنت تعباً . فأجابها قائلاً :

— ليس هذا معناه أني تعب . ولكن ربما يكون ساندر قد استيقظ الآن من نومه . فقالت له وهي تهز كتفيها :

— اذا كنت تخشى أن يكون زوجي ، قد استيقظ . فهذا شيء آخر . فلنعد !

وفي العودة ، كانت تلزم الصمت . ولم تستند الى ذراعه قط . فلماذا ؟

وكلمة « لماذا » هذه ، لم تخطر بباله قبل الآن . أما اليوم ، فيخيل إليه انه يلحظ شيئاً لم يكن قد فهمه من قبل ... فهل ؟ ...

وأحس سائل ، ان احمرار الخجل يكسو وجهه .. ونهض واقفاً ، وكأنما انقلب كيانه رأساً على عقب . وعاد ثلاثين عاماً الى الوراء . حيث كان في سنّ الشباب . وخيل إليه انه يسمع مدام ساندر ، تقول له : «أحبك» وانه . وانه .....

هل من الممكن ، إنها كانت تكنّ له حبّ . ولكنه لم ير شيئاً . ولم يفهم شيئاً ؟ . إن هذا الوهم ، الذي أتى يتسرب الآن الى روحه ، قد جعل يعذبه !

آوه ! لو كان هذا الوهم ، هو الحقيقة . لو كانت مدام ساندر ، أحبته فعلاً . لو أن

هذه السعادة ، قد مرت به ، وتركها ، تفلت منه ، دون أن يمسك بها ! وقال وقد أهاجت لواعجه الذكرى :

« أريد أن أعرف . فليس في مقدوري أن أستمر في هذا الشك . أريد أن أعرف » .

« إني الآن في الثانية والستين من عمري . كما انها في الثامنة والخمسين . فيمكن لي اذن أن أسألها هذا السؤال ، دون خجل . حتى أفهم ، ما أشكل عليَّ فهمه فيما مضى . وعلى هذا خرج سائل من بيته .

كان منزل ساندر ، في نفس الشارع ، وفي مواجهة بيته تقريباً . فقصد إليه سائل . وفتحت له الخادمة الصغيرة ، وقد وصل الى سمعها ، دقات مطرقة الباب المتواترة . ودهشت لرؤيته ، في هذه الساعة المكرة وقالت له :

— أهو أنت ، يا سيد سائل ! هل جدَّ حادث ما ؟ . فأجاب سائل :

— لا ، يا بنيتي .. ولكن اذهبي الى سيدتك ، وقولي لها اني أريد أن أكلمها في الحال

— ولكن ، سيدتي تصنع حلوى التفاح ، من أجل الشتاء الذي أقبل . وهي الآن في حجرة الفرن ، وفي ثياب لا تسمح لها بمقابلة الزوار . أتأذن ؟

— أجل ، ولكن قولي لها ، إني أريد أن أكلمها في شيء مهم .

وذهبت الخادمة الصغيرة . وجعل سائل ، يتمشى بخطوات عصبية . غير أنه لم يحس ارتباكاً أو اضطراباً . آه ! إنه سوف يسألها عن هذا . كما لو كان يريد أن يسألها عن شيء يختص بالمطبخ . فقد أصبح في الثانية والستين من عمره !

وفتح الباب . وظهرت فيه مدام ساندر . انها الآن ، امرأة سمينة ، عريضة مستديرة . مخدرين ممتلئين ، وضحكة رقاقة .

وكانت تمشي ، وقد ابتعدت يداها عن جسمها . وكشفت ذراعيها العاريتين وقد تلوثتا بسائل الكرز . وسألته في قلق :

— ماذا بك يا صديقي .. أمريض أنت ؟ . وأجابها على الفور :

— لا ، يا صديقتي العزيزة . ولكني أريد أن أسألك عن شيء يهمني للغاية ، شيء يعذب قلبي . فهل تعديني ، أن تصدقيني القول ؟ . فابتسمت قائلة :

— أنا دواماً صريحة . فسل ما تريد .

— هأنا أقول لك ، إني أحببتك ، يوم أن رأيتك للمرة الأولى . فهل شككت في ذلك ؟ . وضحكت . ثم قالت تلك الجملة القديمة :

— أيها الحيوان الكبير . هيا ! لقد لحظت ذلك ، يوم أن رأيتك للمرة الأولى !

وسرت الرعدة في بدن ساڤال . وجعل يتمتم قائلاً :

— أكنت تعرفين ؟ . إذن ماذا ؟ . فعاد ساڤال ، يقول :

— اذن ، . فاذا كنت تنكرين ؟ . . ما . ما . ماذا كنت تجيبين ، لو أني قلت لك . لو أني بحت لك بالحب ؟ .

وضحكت ضحكة قوية . وتساقطت قطرات العسل من أطراف أصابعها الى الأرض . وقالت :

— أنا ؟ . ولكنك لم تسألني عن شيء . ولم يكن من شأني أنا ، أن أجعلك تبوح وخطا ساڤال ، خطوة اليها . وقال لها :

— إذن ، هلاّ قلت لي . أتذكرين ذلك اليوم . حيث كان ساندر ، نائماً على العشب الأخضر ، بعد تناول الطعام . وحيث كنا معاً ، الى أن عدنا اليه ؟ .

وسكت ينتظر الجواب . وكفت هي عن الضحك . وجعلت تنظر في عينيه . ثم قالت :

— حقّاً ، اني أذكر ذلك اليوم . وعاد يقول مرتعداً :

— هذا حسن . في ذلك اليوم . لو كنت أنا . لو كنت جسوراً في ذلك اليوم . وبحت لك بغرامي . فاذا كنت تصنعين ؟

وابتسمت مدام ساندر ، ابتسامة امرأة يعذبها الأسف . وأجابت دون تردد وبصوت واضح النبرات . وفي لهجة جدية :

— إذن ، لتقبلت كلامك بالرضى ، يا صديقي .

ثم دارت على كعبها . وهربت الى حيث كانت تصنع الحلوى .

وخرج ساڤال ، الى الشارع ، حزيناً مهموماً . كأنما حلت به كارثة . وكان يسير متململاً تحت المطر ، بخطى كبيرة ، وفي خط مستقيم ، الى الأمام . حابطاً نحو النهر ، لا يفكر الى أين يقصد .

وعندما وصل الى ضفة النهر ، التفت يميناً . ثم أخذ طريقه ، متتبعاً الشاطىء ، ومشى وقتاً طويلاً ، كأنه مدفوع بغريزة فيه . وأصبحت ثيابه تقطر ماء . وتنفث فمه ، وبدت وكأنها خرقة لا هيئة لها يتسرب منها الماء ، كما يتسرب من غربال . هذا ، وما زال ساڤال ، يسير أيضاً ، الى الأمام . الى أن وجد نفسه في ذلك المكان ، الذي تناول فيه طعام الغداء ، صحبة ساندر ، وزوجته . في يوم بعيد مضى . ولا زالت ذكراه ، تعذب قلبه !

ثم جلس تحت الأشجار العارية . . وبكى ... بكاء مرّاً .

نعمت مصطفى

بعث

أسعدتني يا طاهرَ الأرواحِ ومُحيلَ أرزائي الى أفراحِ
لما اجتليتك رفَّ قلبي بهجةً وافترَّ ثغري بعد طول نواحي
ونسيتُ ما كابدته في حاضري وذكرتُ عهد بشاشتي ومراحي
يا حسنَ وجهك وهو يبتسم ضاحكاً بعذوبة خلابة وسماح
لما تجلّى فجره انجاب الدجى وعلا غناءُ فؤاديَ الصدّاح

***

رانَ القنوطُ عليَّ حتى لحتَ لي فتبدّلت بعد التجهّم حالي
وأضأتَ بالبشر المشعِّ غيابتي وبعثتَ فيَّ محبَّبَ الآمالِ
وبدا جمالُكَ ضاحياً فإذا به يُضفي على دنياي أيَّ جمالِ
وغزوتَ معقلَ قبحها وضلالها فمحوتَ نقشي حسنها وضلالِ
أشبهتَ إقبالَ الربيع كما الرُّبى زهراً يهشُّ لذلك الإقبالِ

***

مثلتَ أبدع ما حواه وجودنا من حسن سيماء وحسن صفاتِ
ونهضتَ رمزاً للطهارة داعياً أهلَ الجحود الى هدى وتُقاةِ
ونصرت روح الخير بعد قنوطنا منه على روح الشرور العاتي
فتبدّت الدنيا النميمة جنة في ناظري مخضلّة الزهرات
يا مبدع الدنيا السعيدة هذه روحي تعود فتجتني بحياتي

***

لما سمعت حديثك العذب انتشت روحي بأرخم ما تعي أذناني
واهتزَّ مني كلُّ عرق وانبرى وتراً يرجّع أعذبَ الألحانِ
وحوت ضلوعيَ مهرجاناً راقصاً يحييه رجعُ مثالثٍ ومثانِ
وتجاوبت أصداؤه خفّاقةً حولي وعمَّ اللحنُ كلَّ مكانِ
فإذا الوجودُ يعيد منتشياً معي لمجاً بمحمد جمالك الروحاني

محمد شهير الشرباشي

حسن الله

في الألحان والشروق

للأستاذ حسن كامل الصيرفي

بعد ريادة الأستاذ خليل بك مطران للشعر الشرقي الحديث وما أدخله عليه من نهج جديد ، وتجارب منوّعة ، ومعاني مبتكرة ، وأخيلة طريفة .

قامت في مصر مدرسة أدبية تشق للشعر الفني جادة جديدة ، متأثرة مطران تأثراً توجيهيًّا ، وكانت تضم هذه المدرسة ثلة مصطفاة من شباب الشعراء وكهولهم ، وعلى رأسهم الدكتور أبو شادي وناجي وغيرهما ، وقد استمدت هذه المدرسة القوة الشعرية في ذاتها ، محتفظة باستقلالها وشخصيتها الأدبية ، ثائرة على القوالب الشعرية القديمة ، والمنظومات التقليدية المعاصرة — فاستطاعت بجهادها وجهودها ، أن تتحف البيئة الادبية بآثار قيّمة حوت ألواناً من الشعر طليقة ، وصوراً مضيئة ، ومعاني جديدة ، وأنغاماً عذبة ، لم يكن للناظمين الحفريين عهد بها .

ومن نوابغ هذه القبلة ، الشاعر « حسن كامل الصيرفي » ، شاعر رومانتيكي النزعة في أغلب شعره ، مجنّح الخيال ، شفّاف الأنغام ، جمعت شخصيته بين كنزين : طبيعة فنيّة ، ونفسية طيّبة تلمح مظاهرها في لمحات وجهه المعروق الحساس ، وعينيه اللامعتين الذكيتين . ولقد هيأت له طبيعة بلده — دمياط — إلهامات منوّعة ، انسابت إليه من البحر الجيّاش ، والنهر الهادىء المقدّس حيث يلتقيان هناك قريباً من بلده ، وفجّر الألم في نفسه ينابيع الشاعرية ، وقتلتها أعصابه المتجاوبة المرهفة ، فأثمرت شعراً جديداً ، فاتن النغم ، لا عهد للبيئة الأدبية المصرية به .

* * *

وكان ديوانه « الألحان الضائعة » أول ديوان مطبوع لشاعر وهو يعدّ فتحاً جديداً

في الحقل الأدبي ، وتتمثل فيه روحه الثائرة على الحياة ، وعلى الرواسم الشعرية المألوفة ، والأهداف التقليدية ، إذ قد وعى تجارب فنية خالصة ، وأزدهر بخيالات مجنّحة ، ونغمات أثيرية ، أثملت قلوب الخاصة ، ورنّت بعض أصدائها في القلوب الصافية المتصوفة من أبناء البلاد العربية ، وهذه النغمات وإن تفوّع عبقها في قلة من الناس ، فإنها لم تلق أيّ تقدير من غالبية العاديين من سكان هذه الأرض ، وهم الذين عناهم الشاعر بقوله في إحدى قصائده بديوان الألحان ، حيث قال :

بَنَيتُ لهم من جنان الخيال فراديسَ ترقصُ فيها الفنونْ
فراحوا يجنّحهم يهزأون ومالوا على سُورها يهدمون
وأنشدتُهم من أغاني السماء أناشيد تُمزّقُ الخالدين
فضاع الصدى في فضاء الحياة وذاب النشيد وهم يصخبون
وحدّثتُهم عن جنان الخلود فكانوا بقصّتها ساخرين

* * *

ومثل هذه الألحان المتمردة كثيرة في ديوان « الألحان » وأكثر منها ألحان الألم ، وهي تسير نفسه القلقة المتجهمة في حقبة من عمره ، وستظلّ هذه الألحان نبعاً ثرًّا لقلوب الرومانتيكيين ، ولأرواح التوّاقة للأُنس الروحي المفقود في دنيا الناس . ومن نماذج هذه الألحان ما جاء في قصيدته « ربيع كالخريف » التي يقول فيها :

هو الربيع .. ولكن أين بهجته وأين ما كنت ألقى في مغانيه
هو الربيع .. ولكن لا أحسّ به ولست أشعر شيئاً من معانيه
هو الربيع . . ولكن عند مبتهج هو الربيع . ولكن عند أهليه
لكنني في خريفي بتُّ منتظراً سقوط أوراق عمري في تلاشيه !

* * *

ومع وفرة هذه الألحان المشجية ، فلم يخلُ الديوان من خواطر تأثرية واقعية خفيفة مثل قصائده « المنديل » و « عقب السيجارة » . وقد جمع في هذه الأخيرة خواطر وجدانية

متنوّعة ، وقد استهلها بقوله :

في الأرض ملقاةً مذهّبةً هذي البتيّة من سجارتها
منبوذة كانت مقبّلةً من ثغرها تفنى لذوّتها

* * *

كانت تؤانسها فتخلق من موج الدخان عوالماً شتى
كانت تؤانسها فتبعث من قبر الحياة حوادثاً موتى

* * *

كانت تشارك قلبها الوجدا وتظلّ تكتم شجوها عنها
أنفاسها معدودة عدّا وحياتها ملريةً منها

* * *

وتطيل في الأنفاس ما شاءت فتظلّ صابرة على البلوى
حتى تذوب كأنما كانت حلماً ولم يخلف سوى الذكرى

ولم يقتصر الصيرفي على النواحي التي ألمعنا اليها ولكن له لفتات غزلية متصوفةً ، ونفثات في شعر الطبيعة ممتزجةً بالخواطر الوجدانية آناً ، وبالفلسفة الخفيفة آناً آخر ، فضلاً عن اتجاهات رمزية قليلة ولمسات إنسانية مثالية نادرة تمثل لها بمقطوعة «التضحية» وهي ختام ديوان «الألحان» — وقد جرت كالآتي ، في أسلوب مباشر جميل :

هنا في هيكل الحبّ أُحقّر مبدأ الفرد
وأحرق عنده قلبي بخوراً طيّب الندّ

* * *

ولست بنادمٍ يوما على قربانيّ الضائع
أجلّ الناس من يلقى ليرضي الذهن الجائع

— ٢ —

هذه الفصات العابرة تكشف — إلى حدّ كبير — عن شعر مستقل نابغ ، وتنمّ على شاعر متحرر أبى أن يرسف أدبه في الأغلال ، وتتنفس أنغاماً فريدة لذّة ، أنغام الأسى الحنون التي تعيش في الوجدان وتدوم... وكأيّ من لذة في الأنغام الحزينة أعذب من اللذة نفسها، كما يقول كلارنس دارو Clarence Darrow في كتابه «الواقعية في الأدب والفن»

* * *

وإذا كان ديوان الألحان قد أطرفنا بمثل هذه الأنغام وأمتعنا بتجارب شعرية خالصة جلّاها خواطر تأثرية وجدانية حزينة فان ديوان « الشروق » يسجل نقلة شعرية مغايرة باتقان الشاعر نقلة نفسية مشرقة . إنه ديوان غمرت أضواءه الظلال ، وأطلّ في ثناياه وجه المرأة الجاذب ، ونبض فيه قلبها العاطف ، فوجّه روح الشاعر وجهة جديدة ، وأضفى على شعره إشراقاً ، وأضاف إلى تجاربه تجاريب ، وتوّع انفعالاته ، وبدّل قليلاً من موسيقاه ، وقاده من عالم الضباب والسحاب إلى عالم الحياة والأضواء .

وأثر هذا الوجه الجاذب ، ملموس في قصيدتيه « النور الجديد » — ص ١٠ — و« النظرة الأولى » — ص ١٦ —

في النظرة الأولى رأيتُ الحياة تفتح لي باباً الى عالم
تسدّق عيني اليوم فيما تراه أمْ لا ترى إلاّ رُؤى حالم

* * *

في النظرة الاولى جمعتُ البعيدْ من عالم بالحبّ وألوانه
في النظرة الأولى سمعت النشيدْ فرُحتُ مخموراً بألحانه

* * *

في النظرة الأولى رأيت الشبابْ يحطّم الأغلالَ عن سارقه
ويجهل الماضي وينسى العذاب فيخلقُ الكون لخفّاقه

* * *

قد كحّل النورُ جفوني فلم يَدَعْ لطيفِ النوم فيها أملْ
سيُنكر القلبُ معاني الألم ويفهم الكونَ بفكرِ الثَّمِل

* * *

فهذا نزوعٌ وجداني مُشْرِق جديد وتبدُّلٌ نفسانيٌّ عجيب ، جعل الشاعرَ من النظرة الأولى ، ينسى العذاب ، وينكر الألم ، ويودّع الماضي ، ويفهم الكون فهماً جديداً . ويرى جماله بالنظرة الأولى ، ويحسُّ في جمال هذه الحبيبة بدفقات النور تضيء جوانحه ، ويرى مرأى الطبيعة وبناتها بمنظار وردي ، فيقول في قصيدته « النور الجديد » معبّراً عن أُنس نفسه وإشراقها :

وصلتِ ما مرَّ من عمري بآتيهِ فرُحْتُ أُكحِلُ عيني من مرائيهِ
مجلّى من النُّور لم أبلُغ مطالعَه أنّى اتّجهتُ ولم أدْرِكْ تناهيهِ
الصبح يلمح تيّاهاً بصادحهِ في مسمعيَّ جديدٌ من أغانيهِ
والفجر قبل ارتحال الفجر لمّح لي عما يضمّنُ صبحي في معانيهِ
والطير تهتف والأزهار رانيةٌ كأنّها تتحرّى مَن تُناجيه

* * *

ويبدو لنا أن فرحته الجديدة كان يشوبها كثيرٌ من التفكير . ودلالة هذا ظاهرة في القصيدتين سالفتي الذكر ، حيث نجد فيهما تورُّعاً موسيقيًّا ، وضوءاً قليلاً ، وحركةً قليلة السرعة . والعهد بالشعر المرح ، أن يكون عالي الموسيقى ، قصيراً في مسافاته الصوتية ، مليئاً بالنبض .

وحالما انتشع ما كان يهوّم حوله من تفكير في بداية حبّه ، انبرى الشاعر يصف أثر الحبيبة فيه حسيًّا ، ومعنويًّا ، فأخذ يصف أثر عينيها وشفتيها في مشاعره في قصيدتيه « عيناكِ » — ص ٤١ — و « شفتاكِ » — ص ٤٢ — وأثرها المعنوي في مثل قصيدتيه « الرضا » — ص ٤٠ — و « تنهّداتي » — ص ٥٠ — وفي هذه القصائد الأربع ، نجد تفاوتاً في تجاربه ، وفي حالته النفسية ، وفي موسيقاه . . . ففي قصيدتيّ « عيناكِ » ،

و «شفتاك» تعلو موسيقاه قليلاً، ويخفُّ توزُّعه النفسي، وتتواصل وحدته الأسلوبية، وتتجرد معانيه. وفي قصيدته «الرضا» تعلو موسيقاه قليلاً، وتهدأ نفسه وتنوّعي صوره، وتقلُّ نكراته .. وفي قصيدة «تهدّاتي» تترحد نفسه، وتتوحد موسيقاه، وتعلو درجات، وتتنوّع انفعالاته، فلا يكتفي بالتعبير عن عاطفة الحب وحدها، والتلاعب بالألفاظ والصور حولها، ولكنه يضيف في هذا القصيد انفعالات أخرى تلابس عاطفة الحب أحياناً. واعتقادي أن هذا القصيد خير ما في الديوان، وفي الفقرتين الأوليين منه يقول:

قالت:

سلامٌ تهدّاتك في سكونكَ يا حبيبي
هل أنت في فردوس حبّك حاملٌ عبء الغريبِ
تمضي كما يمضي شعاعُ الشمس في مهوى الغروبِ
أوَلم تجد في ظلّيَ الوافي هناءاتِ القلوبِ
فظللتَ تزفرُ زفرةَ المزوونِ والماني الكئيبِ؟!

*

لا تحسبي زفراتيَ الظمأى شجوناً لم تولّ
فهي التحرُّق في هواكِ وإن حييتُ بخير ظلّ
وهي انسدالُ في هواكِ وحيرتي ما بين جهلي
وهي التجرُّد في عناقك والتعمُّم والتملّي
وهي اختلاج الوحي في نفسي بآيات التجلي

— ٣ —

والملحوظ في ديوان «الشروق» جنوح الشاعر، غالباً، الى التجريد في المعاني، كما هو الحال في ديوان الألحان، وميله الى الإبهام في أحيان، كما نلحظ ذلك في قصيدته البديعة «المعنى المبهم» — ص ٥٧ — وفي مطوّلته المهموسة «وحدة العمر» — ص ٦١ —

كثيرٌ من التأملات والمعاني الغامضة ، ومن أعذب ما جاء فيها :

ستختلف الحياة أمام عيني
تمرُّ طيوفها وتغيب عني
وتفنى في محيط من تمنٍّ
وأحلام تلوح بكل لون

ويختتمها بقوله :

تعالَ فقد بلغتُ حدودَ نفسي
وأطمع أن أحقّقَ طيفَ حلمي
فهل لك أن تذيب ثلوجَ يأسي
وتمزج حاضري بغدي وأمسي ؟

وهذا القصيد قد يمتعنا بأصداء شعورية بديعة ، إلاَّ أنه يضع الذهن في حيرة وتلدُّد . ويماثله في هذا المنحى قصيد « الحرمان » — ص ٢٣ — ذو المعاني المطلقة المجرَّدة والخواطر المبهمة التي يهيم بها الشعراء الشرقيون وبعض شعراء الغرب الرمزيين والمحدثين .

* * *

ويضاف الى ما تقدم أن ديوان « الشروق » امتاز في موسيقى بعض قصائده بأنغام ارتكازية لا عهد لديوان الألحان بها ، وآية ذلك قصيدته « القبلة » — ص ٣٨ — فأنغامها تتراوح بين العلوّ والهبوط . وهذا النوع من الموسيقى نادر في الشعر العربي ، المنخفض القرار في الغالب ، وقد جاء في قدّتها الأولى قوله :

خمرُ شبابٍ رطيبْ معصورة من قلوبْ
على الشفاه تذوبْ
في القبلتين ، وآه
من طعمها الأسكرني !

وفي قصيدته « نشيد الثورة » تعلو موسيقاه درجات . وليس في ديوان « الألحان »

هذه الموسيقى العالية . ومما جاء في نشيد الثورة قوله :

تحرَّكْ يا أَبِيَّ الصَّيمِ وانهَضْ
فحقُّك في بلادك بات يُرفَضْ
وأيُّ جفونِ مستريحٍ تغمض
إذا ما الأُسدُ ديس على حِماها !

* * *

بلادك لُقمةٌ في عين جائعْ
وحقك نُهبةٌ في كفِّ طامع
وأنت مع المذلة جِدُّ تابعْ
فقم وأزح عن النِّيل السِّقاها

* * *

والملحوظ ، أن الصيفيَّ في موسيقاه العالية لم يبلغ الأوج ، ولعلَّ ذلك راجعٌ الى طبيعته المتطوية ، الميَّالة الى كبح انفعالاتها . ولهذا نجده في ألحان الألم يجيد كلَّ الإجادة لأنها ألحانٌ تتطلب موسيقى هادئة منخفضة القرار ، وهي تحتاج في الإعراب عنها الى جهد كبير .

وفي ديوان « الشروق » طائفة من القصائد ذات الأنغام الهادئة الشجية مثل قصيدته « الشاعر والسحاب » — ص ٨٣ — التي أزجاها الى روح الشاعر النابغة « فوزي المعلوف » وقصيدته « الصباح الجديد » — ص ٨٦ — التي أهداها لشاعر الخضراء « أبو القاسم الشابي » وهاتان القصيدتان رائعتان من روائعه في تجربة موسيقاها ، وخيالها ووحدتهما

ومما جاء في القصيدة الثانية قوله :

أيها المتعَبُ الذي حطَّم النايَ واستراحْ
نَمْ قريراً فقد سَرى لَحْنُكَ العذبُ في البطاحْ
فجرُك الحلوُ لم يَضعْ بين أيامك الشِّحاحْ

فهو ما زال سابحاً هائماً خافق الجناح

* * *

في مثل هذه النواحي الحزينة ، تتوحد تجربة هذا الشاعر وتشف موسيقاه ، وتعمق تأملاته ، ولعل مرجع هذا الى أن النفس في الألم تكون أكثر توحداً ، وأشد استيحاء لأروع ما فيها ، على حين انها قد تتوزع في قصائد المرح أو القصائد التفكيرية ، ولم يسلم ديوان « الشروق » وقد طافت به شعاعات الفرحة ، ولمعت به خواطر الفكر ـ من تخلخل وإن راقت فكراتها . وهذا ما تلحظه في مثل قصيدته « خمرة الفن » ـ ص ٣١ ـ و « الأفق » ـ ص ٤٧ ـ و « أنا » ـ ص ٦٨ . فهذه القصائد ليست على ما نرى في مستوى شعره النابغ

ـ ٤ ـ

ومن هذه الصحات الخاطفة تظهر لنا بعض سمات شعر « الصيرفي » ومناحيه ، وإنه لشعر رومانتيكي مجنح في عهد النساء ، وشعر غزلي في عهد الشباب ، مازجته بذور قليلة من بذور الواقعية . وشعره ترجمة لحياته ونفسه المنطوية غالباً ، المنبسطة نادراً ، وتعبير لمزاجه المكتئب كثيراً ، المشرق قليلاً . فهو شاعر صادق لا أثر للتصنع فيه ، وهو من أبناء « أبولو » العاكفين على محرابه ، العاملين على رفع لوائه . ومصداق ذلك نجده في أول قصيدة له بديوان « الشروق » الموسومة « بخمرة الشعر » التي فيها يذب عن الشعر ويؤكد خلوده لأنه المعبر عن آلامنا وأفراحنا وأشواقنا وخفقات قلوبنا ، النابع مما في الكون من سحر وجمال . وهو بهذا القصيد يذكرنا بكلمات « فيكتور هيجو » عن الشعر وضرورته في قوله :

« بعض الناس يقولون في أيامنا هذه ، إن زمن الشعر قد مضى وانقضى ، وكأني بهم يقولون لا ورود بعد اليوم فقد قضى الربيع نحبه ، ولا أوبة . وإن الشمس لن تشرق بعده وإنك لو جُلت في الفضاء لن تجد فراشة ، ولا ترى للقمر ضوءاً ، وإنك لن تسمع زأرة

الأسد ، ولا صيحة النسر ، وان القلب البشري قد مات» .

* * *

وعلى غرار هذه الكلمات الشعرية ، جرت صيحة الشاعر الانجليزي الموهوب « برسي شيلي » في سفره البديع « دفاع عن الشعر »

* * *

ولقد صار لزاماً على الأرواح المرهفة في الشرق أن تضم أصواتها الى صيحات هؤلاء الشعراء ، وترفرف بأجنحتها النورانية على دنيانا الحاكفة على المادة القانعة بشرورها وسيئاتها .

وصار واجباً على الشاعر الذي تحدث عنه وقد جاوز سنّ الأربعين بأشهر ، أن يخرج دواوينه التي لم تطبع ، وفيها قصائد فريدة معجبة ، وعليه بعد ذلك أن يودّع نزعته الرومانتيكية الغالبة ، ويهبط دنيا الناس ، ناظراً الى المجتمع الذي يعجّ بالآلام ، والمآسي والمظالم ، ولْيَذكرْ دائماً قوله في قصيدته « وحدتي » :

شقاءُ الناس يؤلمني فأسعدهمْ بأشعاري
ونارُ الناس تحرقني ولا تحرقهم ناري

* * *

فلْيُقبِلْ إذنْ شاعرنا على المزف على قيثارة الحياة لا ليشجي الناس بأنغامه ، ولا ليسعدهم بأشعاره فقط بل ليصوّرَ آلامهم وآمالهم ويثور على أسوائهم وأهوائهم ، ويحمل على ظالميهم كما فعل في مثل قصيدته « السحابة المغترّة » التي وجّه بها الى أحد الحكام المتجبرين في زمن مضى — وما ريبٌ أن شعره المطبوع منه وغير المطبوع سوف يلقى من أدباء الشرق ما هو جديرٌ به من إعزاز وتقدير .

القاهرة مصطفى عبد اللطيف السحرتي

العاشق الاسير

أنا الظامىء الهيمان في لجّة البحر ... ويذبل عمري كالسراج ولا أدري

وما بي قيود غير أني مكبل ... بحبي فمن لي بالخلاص من الأسر

أغال لوجدي ساعة العمر حقبة ... فإن مرّ يوم خلته مرّ كالدهر

جزيت على حبي عناء وغربةً ... فيا بئس ما ألقاه في الحب من أجر

فيارب رفقاً بي وخفف عقوبتي ... إذا كنت قد حُمّلت في الحب من وزر

على أن حبي عبقريٌّ مشرّف ... نبيل المعاني من عفاف ومن طهر

سيخلد حبي في الزمان وإنه ... ليصحبني أثناء عيشي وفي قبري !

كلية الطب — عفيفي محمود

لحن أرجنتينا

وحي فيلم أمريكي معروف

عشاقُك يا « أرجنتينا » طلعُوا بالخيلِ على الأنشِ
ملأُوا الوديانَ أرانينا من سحرِ الخضرةِ والشفقِ

*

دقّعوا بالخيلِ الى النهرِ و « ريو » باللحنِ تناديهمْ
طلعُوا يعشونَ على الزهرِ وعبيرُ نسائكِ هاديهمْ

*

يهوونَ السيرَ على النغمِ يروونَ غريبَ أساطيركْ
ما التهفةُ في رُوحي ودمي إلا من وَحيِ قياثيركْ

*

ماذا أعددتِ لأشباهي من سحركِ يا « أرجنتينا »؟
التعسُ الفضيُّ الراهي حلمُ العشاقِ السارينا

*

زفّوا الأخبارَ الى «ريتا» وأنا منطلقٌ بجوادي
معشوقكِ يا « سليوريتا » سيقيمُ الليلةَ في الوادي

*

نورٌ قد لاحَ لأنظاري كالنجمةِ في سفحِ التلّ
كوخٌ قد حُفَّ بأشجارٍ في حضنِ الزنبقِ والغلّ

*

ودخلنا الجنةَ في الليلِ نختالُ ثناءً وفرادى
والنسمةُ عاطرةٌ والليلُ تهفو بلحونِ « السرنادا »

*

أيّانَ أداعبُ « جيتاري » والحورُ الناعمُ يُصغي لي
وأغني أحلى أشعاري من قبلِ وَداعي ورَحيلي

التامرة

يوسف مبرا

آراء

في العظماء والعظمة

لاميل لودنج

العظماء من الرجال إنما هم عظماء في الحجم والشكل . ذلك لأني لم من العامة والمدام ما فرجال العاديين مع فارق واحد هو زيادة الحد في كل عضو ومقدار . فإذا رويت القصة كانوا هم والرجال العاديون بمنزلة سواء (جوته)

كانوا أربعة يفترشون الرمال . وقد وقعوا عربتهم فوق كثيب من الرمل يشرف على الساحل . واستقر الرأي فيما بينهم أن يقضوا ساعة ينظرون الى الأمواج والى زرقة الماء والسماء قبل أن تغرب الشمس .

ومع الجلال الذي ينبعث من العناصر الصامتة حولهم فان الحادث الجلل ، حادث غروب الشمس ، قد كان له أبلغ الأثر في نفوسهم . حتى لقد نسي هؤلاء الأربعة المتنزهون — الى حين — صنوف كفاحهم . وألوان فشلهم ونجاحهم . وحتى لقد بدا لهم أن الحرب كانت بعيدة عن هذه الدنيا . وحتى لقد غاب عنهم جميعاً أن الماء الذي ينظرون اليه ، هو ماء المحيط الهادي الذي كان يحمل في تلك اللحظة مئات من السفن تحمل الجنود . وقد حفت بهم المكاره . فقد يبتلعها ويبتلعهم الماء بعد حين .

وصاح أحدهم — وكان تاجراً — قائلاً : أيها الآلهة القادر على كل شيء ! ثم وكز بكوعه الشابة التي تفترش الرمل الى جانبه . وكانت هذه المرأة عازفة من العازفات « على الكمان » فرفعت يديها الى عينيها لتقيهما الضوء المتوهج . ضوء الشمس الغاربة . ثم قالت في رفق ولين : ما أبدع المنظر وما أجمله !

أما صاحبتها الكبرى — وهي مدرسة — والتي كانت الى تلك اللحظة راقدة فوق صدر زميلتها ، فقد دارت دورة ونظرت الى المنظر كله نظرة المتطلع ، لا نظرة الخائف

ثم قالت بصوت جهوري : إنه ليس منظراً . إنما هي الطبيعة !

وقالت الصغرى : هذا يتوقف ... ثم أمسكت عن القول . ذلك لأنها لم تشأ أن تثير جدالاً . ولكن الأخرى — وكانت أكثر اصراراً — ولت وجهها نحو الفيلسوف الذي كان قد انتحى ناحية يلعب مع الطفل . والذي كان جبينه المستدير — وهو متوهج بطبيعته قد أحتواه ضوء الشفق وقد رمى هو ما وسمه الجهد — جهد رجل تقدمت به السن صدفةً من الصدف الى مكان بعيد . حتى يستطيع الطفل أن يجري ليعود بها .

ثم سألته قائلة : نريد رأيك يا أستاذ . ونريد أن تفتينا : أكل المناظر التي حولنا فنٌ أم طبيعة ؟ فتبسم الفيلسوف وأدار وجهه نحو الجماعة وتكلم بصوت هادىء منغم وهو يقول : على أية حال انه شيء عظيم ! أليس كذلك ؟

ثم ساد سكون . ففكر التاجر لحظةً . ثم وقف كأنه يريد أن يبدأ توجيه الأسئلة . ثم جلس بين السائلة والمسئول فاجتمع الأربعة في حلقة أشبه بنصف الدائرة .

وجاء الطفل في تلك اللحظة وجلس على الرمل الى جانب أمه ليقارن بين صدفته الجديدة وبين ما اجتمع لديه من الصدف . وظلّ الطفل يهمهم فيما بينه وبين نفسه . بينما خلا الكبار الأربعة الى حديثهم الغريب .

قال التاجر : وهكذا أنت يا جون تسمي هذا المنظر منظراً عظيماً . فهل لك أن تقارن بين الشمس الغاربة وبين رجل من العظماء ؟

فقالت عازفة الكمان : بين الشمس الغاربة وبين رجل من العظماء الذين عاشوا وارتحلوا . فالشمس عظيمة حتى في موتها .

قال الفيلسوف : وكذلك الشأن لدى عظماء الرجال . فالرجل الذي يموت موتة غير مشرفة يقيم الدليل على أنه لم يكن في حياته رجلاً عظيماً .

المدرّسة : إذاً فالأمر متوقف على الساعة الأخيرة ! إنك لن تستطيع أن تقنعني بهذا الرأي . أنظر الى « نابليون » مثلاً فان نهايته كانت نهاية تعسة .

الفيلسوف : بل العكس هو الصحيح . فان « نابليون » مات كما يموت البطل الحق . وقد مات كريماً كما عاش كريماً .

قالت المدرّسة : بل اصبر : ثم اصبر ! أتقول البطل ! فمن هو البطل؟ وهل الأبطال كلهم عظماء ؟ وهل تقول إنّ أولئك الذين يسميهم الناس أبطالاً هم عظماء . ولا عظماء - واه؟ أمّا أنا فلست ضالعة مع الأبطال !

فقال التاجر وكان زوجها : رويدك يا دوللي ولا تخلطي بين الأشياء .

قالت الزوجة : إنّ « جاك » ليزعج عند ما أبدأ بقول ما أظنه حقّا !

ثم جلجل صوت الطفل وهو يُري أمّه صَدَفةً ويقول لها انظري الى تلك الصدفة !

قالت أمّه وهي تنهاه : إلزم الصمت فان الأستاذ سينبئنا بأسراره . فضحك الفيلسوف وقال :

إني أعلن أولاً أن لا أسرار عندي . ثم اني أريد أن أعرف أيّة أسرار تريدين أن تكون مدار الحديث ؟

قال التاجر : إن آخر شيء كنّا نتحدث عنه هو الشمس

قالت الزوجة : بل نابليون !

وقالت عازفة الكمان : أظن الحديث كان يدور على العظمة .

قالت المدرّسة : هو كذلك ! فامض إذاً يا أستاذ وقل لنا ما هي العظمة ؟

فتبسّم الفيلسوف وقال : يا فتاتي إنك تسألين كأنك واحد من مذيعي الراديو يسأل ما هو الفيتامين ؟ أو ما معنى كلة زعيم بالأسبانية ؟

ولست أستطيع أن أضع تعريفاً للعظمة في جملة واحدة . فانّ العظمة كالجمال لا تستطيع جملة واحدة أن تحدّد معناه .

قالت دوللي متعجبة : ولماذا لا تستطيع أن تعرف الجمال ؟ إن تعريف الجمال ليس بالشيء العسير . ان الجمال هو ... إن الجمال هو ... ولكن دعنا من تعريف الجمال فكلنا نعرف وصفه .

فضحك القوم كلهم . ولزم الطفل أمّه كأنه يحميها لما رأى ما بها من حيرة واضطراب.

قالت العازفة : ان « جون على حق . فانّ التعريفات لا تقرب المعنى ولا تساعد على تقريبه . إنها تشلّ الفكر .

قال الفيلسوف : قد لا يصحّ هذا القول في مثل هذه الظواهر العظمى . والدليل على ذلك — إذا شئت — أن تراجعي دائرة من دوائر المعارف . وهناك تجدين في مثل لمح البصر قياساً لقطر الشمس . وقياساً لدرجة الحرارة فيها . وبياناً لبعدها من الأرض الى غير ذلك من عشرات الحقائق . ولكنك لن تجدي في واحدة من دوائر المعارف شيئاً يفيدك فيما تراه الآن بأعيننا .

وقد تجدين هناك حقائق عن عظماء الرجال . ومع هذا فان العظمة مختلفة النواحي متعددة الوجوه . فلها أشكال كثيرة . ولها ألوان كثيرة . وهي تستعصي على التعريف .

وقد شبّه « جوته » البقرية مرّة بالآلة الحاسبة : يدار الذراع منها فتعطيك الجواب الصحيح . ولكن تلك الآلة لا تعرف لماذا جاءت بهذا الجواب . ولا كيف جاء هذا الجواب

قالت « دوالي » (وهي تريد أن توقع الفيلسوف في الفخ) : إذاً أنت ترى أنّ العظمة إنما هي شعور وحسّ ؟

قال الفيلسوف : إنّ العظمة هي أعظم من ذلك . وهي أقلّ من ذلك . ذلك لأنها توجد خارج دائرة حسّنا وشعورنا . وإنه لأمر محقق أنها قلّما تصل الى أعمق مواطن حسّنا وشعورنا .

قال التاجر : إذاً أنبئنا : من تسميه عظيماً ؟ نابليون ؟ أم هتلر ؟

الفيلسوف : من المؤكد أن نابليون عظيم . ومن المؤكد جداً أن هتلر ليس عظيماً .

دوالي : قد يكون الشعور عندنا أن هتلر عدونا . وأنه هو الذي شرّد أولادنا . ولكن ما هو دليلك على أن هتلر ليس عظيماً ؟ فنهض الفيلسوف وأخرج نظارته وبدأ يمسحها . ثم نظر الى الأفق البعيد كأنه يحاول أن يجمع أفكاره من بين أمواج المحيط . وكأنه يؤكد لنفسه جدية المسألة وجدية البحث فيها .

الفيلسوف : إن هتلر لا يستطيع إلاّ الهدم والتخريب . وان الفكرة التي أوحت اليه أن يجعل شعباً واحداً سيداً على العالم كله لهي فكرة سخيفة .

وقد تملكت هتلر فكرة الرجل الجشع الذي يريد أن يفرض نفسه سيداً على العالم . وهو في ذلك كذلك المخرق الضعيف الذي يريد أن يبدو أكبر مما هو على حقيقته فيثقل

ينتفخ حتى يتمزق جلده . وحتى لا يبقى منه شيء .

التاجر : ألا تستطيع أن تقول أيضاً عن نابليون أنه إنما أراد التدمير والتخريب ؟

الفيلسوف : إن أول شيء صنعه نابليون لنيل نصره المؤزر هو تكوين لجنة من العلماء لوضع قانون جديد ، يريد به إقامة الحدود . وصلاح أمور الناس . ولا يريد به الفساد .

ولا تزال قوانينه تلك بعد خمس ومائة عام معمولاً بها في كثير من البلاد النائية .

قالت العازفة مستنكرة : إذن أنت تدعوه عظيماً من أجل قوانينه .

الفيلسوف : إنما أردت بقولي هذا أن أبين أن هتلر لا يخلف وراءه إلا الفساد وسوء النظام . وانظري الى صورته ، ثم انظري الى صورة نابليون تعرفين كل شيء .

دوللي : اذن أنت تؤمن بأن عبقرية الرجل يحدد مدى عظمته ؟

الفيلسوف : إنه يدل عليها . فالرأس والملامح لا تكذب أبداً .

فرأس نابليون . وكذلك رأس الاسكندر أو قيصر أو دانتي أو بيتهوفن قد تكون كافية عند العارف الخبير للكشف عن عبقرية أولئك العظماء .

التاجر : ولكن هب أن نابليون لم يسن أي قانون . بل كان مدمراً هداماً كجنكيز خان أكنت تقول أن آراء الرجل هي التي تقوده وتصنع منه رجلاً عظيماً ؟

— إنها ليست آراء الرجل وحدها ، ولا القوانين وحدها . فاذا قصرنا وصف العظمة على أولئك الرجال الذين خلفوا أثراً دائماً استحال الأمر على كل سياسي أن يكون في زمرة العظماء . ذلك لأن كل الأعمال العظيمة التي يأتي بها السياسيون إنما هي عوار مستردة يوماً ما وكل أمبراطورياتهم الى انهيار . وكثيراً ما تكون قوانينهم عرضة للتغيير والتبديل . وكل آرائهم سوف تنقض أو تصبح مسائل عادية .

ثم ما هو مدى الزمن اللازم الذي يضمن بقاء حكم من الحكام عظيماً بعد موته ؟ خمسون عاماً ؟ مائة من السنين أو ألف ؟ إن العظمة لا علاقة لها بدوام عمل من الأعمال ذلك لأن الأعمال التي تبقى على الزمن ليس لها وجود .

العازفة : انظري الى البحر المحيط : ألا ترينه جميلاً !

دوالي : نعم انه جميل ! ولكن ما عليك إلاَّ أن تنصتي لقول صاحبنا . وسترين انه سيقع في الفخ الذي نصبه لنفسه !

فضحك الفيلسوف وقال : لقد خرجت من الفخ متقدماً . وذلك باجتنابي للتعريفات : التاجر : اذا اختفت أعمال الساسة . فماذا يبقى من أولئك الساسة ؟ ولماذا نسمي ملكاً من الملوك أو رئيساً من الرؤساء عظيماً بعد زوال الملك وفناء الجسد ؟

الزوجة : هذا حق لا ريب فيه ! ولماذا أيضاً نضفي لقب «العظيم» على حفنة من الملوك . ولا نضفي هذا اللقب على مئات من الملوك الآخرين . ما دام كل منهم قد شق طريقه في الحياة على طريقته . تدفعه الأنانية تارةً ويدفعه الغرور تارةً أخرى ؟

الفيلسوف : ذلك لأن من سمَّيناهم عظماء قد تركوا في الدنيا دويًّا من أثر الشخصية القوية فهي التي غالبت الدهر وعاشت بعد موتهم . لا تلك المعارك التي كسبوها . ولا تلك البلاد التي دوَّخوها وفتحوها .

وإنه ليكون خليقاً بنا حقًّا أن نهزأ بهم وأن نمحو ذكراهم من نفوسنا لو قُدِّر علينا أن نحارب اليوم خلفاءهم .

فصرخت دوالي قائلة : هذا هو الرأي عندي !

العازفة : (في تحمس بالغ) : لن أومن بهذا الرأي أبداً !

الفيلسوف : ألا فانظري الى من يدافع عن أولئك الرجال أولي القوة والبأس : إنها فتاة فيها ظرف ورقة . وهي لا تربطها بأولئك الرجال أية رابطة . ولا تقوم بينها وبين أحد منهم أيَّة صلة . أتعرفين لماذا ؟ انها كامرأة تعجب بقوة الشخصية عند رجل من الرجال . فهي ترى في صور نابليون ما تم عليه عيناه . وهي لا تزال تحفظ جملة أو جملتين من خطبه . وهي تذكر بضع حكايات من حكاياته . وهي تحس أن حياته كانت ملحمة كبرى كما قال هو عندما آذنت شمس حياته بالمغيب . وهي تنسى أن مليوناً من الرجال قد قتلوا في سبيل تنفيذ خططه . وهي تنسى أنه ترك فرنسا أصغر رقعة وأفقر شعباً منها يوم تسلم زمامها . وهو ما أثار حفيظة معاصريه وأحنقهم وأغاظهم .

ولكن هناك مائة من جلائل الأشياء تصور عظمة نابليون وتجعل منه بطلاً .

من تلك الأشياء الجليلة تلك الفكرة التي كانت تغازله وتلازمه، وهي فكرة «أوربا المتحدة» ومنها تلك الرؤى الجريئة . رؤى فتوحاته . ومنها سرعة البت فيما كان يعزمه ومنها الشجاعة التي خاض بها ستين معركة . كان هو قائدها بشخصه ، ومنها اعتقاده بسعود نجمه ذلك الاعتقاد الذي قاده بزمامه عدداً من السنين . ومنها أسلوبه في كتب غرامه وحبه . ومنها لمحة العبقرية التي أوحت إليه أن ينزع التاج من يد « البابا » ويضعه على مفرقه بيده ومنها أشياء أخرى كثيرة .

* * *

وإننا نميل الى التجاوز عن ذلك العنصر الذي خالط منه اللحم والدم . والذي لا تقرّه القوانين الخلقية . ذلك لأن رجلاً من هذا الطراز لا يمكن أن يلجم بلجام القواعد الخلقية كما لا يمكن أن تمسك أسداً في بيت من بيوت العناكب .

المدرّسة : ولماذا لا يسري هذا القول على هتلر ؟

— ذلك لأنه لم تخرج من فيه أية كلمة . ولم تومض من أفقه أيّة ومضة تلبيء عن العظمة ولم يرو واحد من المعجبين به شيئاً من هذا عنه . ذلك لأنه كان ذا شخصية حقيرة تعسة . وذلك على العكس من نابليون فانّ ألدّ أعدائه قد قالوا وأطالوا في موضوع عظمته فقد حكي عنه أنه لما مرّ في يوم من أيام صيده بكوخ « شاتو بريان » — ذلك الشاعر الذي نشاهد هو — قطع بيده غصناً من أغصان الغار ووضعه فوق باب عدوه ثم وضع على ذلك الغصن قفازه .

وقد حكي عنه انه لما حملت زوجته الثانية بوارث ملكه وولي عهده . وحان مولده قال الطبيب : انا لا نستطيع انقاذ الأم إلاّ بتضحية المولود . فقال الامبراطور من فوره : انقذوا الأم أولاً . تلك الأم التي اعدّ زوجها لتلد له هذا الوارث .

مثل هذه الدلالات تشهد بعظمة نابليون أكثر مما تشهد بها معاركه كلها . وذلك لصدورها من محارب وحاكم .

التاجر : ولكن هب أن « جنكيز خان » قد أوتي مثل تلك الرؤى . وكانت له آراء

كآراء نابليون وله حس كحسه ، وشعور كشعوره فهي زمرة من كنت تسلكه ؟

الفيلسوف : إني لأحسب هذا من آيات سوء الحظ فان هذه السجايا لم ينقلها التاريخ إلينا . ولذلك فاننا لا نعرف عنه شيئاً — حتى ملامح وجهه — معرفة محققة .

وقد كان الاسكندر حصيفاً حكيماً الى حد كبير . ذلك لأنه كان يصحب معه في غزواته جيشاً من المؤرخين والقصاص . ولولا هذا لما سمي اسكندر الأكبر .

* * *

ولو كان قد أتيح لقيصر أن يرى شريطاً من الأشرطة الحديثة للأخبار ورآها كيف تسجل للذراري المقبلة مشاهد رحلة لكبير الوزراء لجنّ جنونه من الحسد .

دولي : أرأيت ! ان المسألة كلها قوامها الأذاعة والنشر .

الفيلسوف : بل إنه الصيت الذي يبقى على الزمن ! إن ما ينشر اليوم أو غداً يمكن أن يشتريه الناس كلهم . ولذلك فان عظمة هذه الأيام قد تنسى بعد بضع سنين .

ولكن إذا انقضت مائة أو ألف سنة ونشرت على الناس أسطورة رائعة منقولة من أوراق قد نال منها البلى . فعندئذ يتقرر مصير الشهرة — علوّاً وانخفاضاً — لذلك الرجل من الماضين .

التاجر : قد يحدد الانعطاف والميل مدى العظمة أكثر مما يحددها فعال العظيم وأعماله

الفيلسوف : إن الانعطاف ليس هو موجد العظمة . ولكنه يلفت أنظارنا الى منابع تلك العظمة كأنه القضيب الذي نسترشد به الى حيث يوجد المعدن النفيس .

والأمر يختلف بين الأشخاص . فمن الناس من أوتي جاذبية ولم يؤت عظمة . ولكنك لن تجد رجلاً عظيماً لم يؤت قدراً من الجاذبية . وكلتا « الجاذبية » و « الشخصية » هما سميان لمعنى واحد . وإذا أردت الدليل على هذا فاقرأ ما كتب عن « جيفرسون » (الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية ١٧٤٣ — ١٨٢٦) أو لنكولن (الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة ١٨٠٩ — ١٨٦٥)

(البحيرة) مبارك ابن الفهيم

راقصة البوليرو

طالع الناس فيك بدر السماء ... وفتون الاصباح والامساء
لك دلُّ الغصون باكرها الغيـ ... ـث فاست من نشوة الخيلاء
تتهادين مثلما يتهادى ... الطيف وهناً في المقلة الكحلاء
أنت حلم الشباب يعبق بالطيـ ... ـب وديما تموج بالاضواء

* * *

حد الناس رقصةً لك جلّتْ ... وتسامت عن مدحة وثناء
كنت فيها أشهى من الأمل الحـ ... ـلو وأبهى من روضة غناء
للهوى لوعة الذبيح بعينيك ... ووجد الصادي لنغبة ماء
تتلوين كلما عصف الشوق ... بنار ، كالحية الرقطاء
ففتنت الورى بكل طريف ... من ضروب الاغواء والاغراء
كنت حيناً كريشة تترامى ... في مهب الرياح بالظلماء
وفريق يراك عاصفة هو ... جاء تطوي مطارف الجوزاء
واذا رقت اللحون وبُحّتْ ... نغمات الأبراق من اعياء
سرت سير المنهوك يقعده الجهـ ... ـد وتحدو به طيوف الرجاء
كلما همّ بالمسير ثنته ... عن مراد مرارة الادواء

فترامى عن الثرى كنزيف صرعته حرارة الصهباء

* * *

أي شيء أبقيت للشعراء جلّ هذا الاحسان عن اطراء
يا سماء الاحسان في كل عين كيف يوفي المديح حق السماء
عجز النطق أن يفي ببيان عن خفايا هواجس الأهواء
وأصبت المعنى الدقيق من النف س بوحي الايماء والاغواء
كم معانٍ للناظرين تبدت وتراءت في فتنة الأعضاء
وكأني أرى الطبيعة في جف نيك ماست بالحلة الخضراء
لست أدري وقد أتيت جليلاً أي نار أججت في الأحشاء
هجت ميّت الهوى وأيقظت وجداً مستكنًّا بالدمنة الحرساء
ورمت الأهواء في خفقة الصد ر وخافي الأحلام بالايماء
وبوحي الجفون حققت لمتاً لمعان عويصة في الاداء

* * *

طالع الناس فيك بدر السماء وفتون الاصباح والامساء

دمشق عرفانة مردم بك

احدى روائع الفنان فرجارا في احدى كنائس فلنسيا تمثل سقف احدى قاعاتها
برسوم القديسين والشهداء من الفرنسكو

صور شرقي

في شرق اسبانيا

قضينا خمسة عشر يوماً في اجتياز هضبة أسبانيا الوسطى (المزيتا) من شمالها الى جنوبها صاعدين سفوح سلاسل جبالها التي تعترض الهضبة من الشرق إلى الغرب كحواجز تقسمها إلى أحواض تمتد فيها وديان الأنهار التي تنحدر من سفوحها وتصب شرقاً في البحر الأبيض المتوسط كنهر الأبرو الذي يروي مدينة سراجوزا في الشمال ، ونهر التاجه الذي تقع عليه العاصمة (مدريد) في الوسط ونهر الوادي الكبير في الجنوب الذي يخترق سهول الأندلس[1] : تكبدنا مشاق صعود تلك الجبال لالتواء طرقها وشدة انحدارها مع كثرة تعاريجها وانحناءاتها الحادة التي تبلغ ست انحناءات على سفح الجبل الواحد ، وخاصة في الشمال ، مما يعرّض أمهر السائقين لانقلاب سياراتهم إذا تهاونوا في حذرهم خشية كما تعرضهم لأخطار أجسم عاقبة أثناء هبوطهم ودبابها إذا لم يحكموا قيادة سياراتهم ويهدئوا من سرعتها .

رغم تلك المشاق التي لم نتعوّدها في ديارنا المصرية — التي أنعم الله عليها بالبساط سطحها — فقد أطلنا لنا لرياضة جأش سائقنا (ماريانو) وحسن قيادته واتزانه في سرعته ، ومساعدة على ذلك عناية الاسبانيين بتعبيد طرقهم الجبلية المتسعة ورصفها رصفاً جيداً ييسر للسائقين الراحة التامة في عبورها علاوة على المناظر الجبلية الطبيعية المتنوعة التي تجذب النظر .

تستغرق في اجتياز الهضبة بالسيارة ما يزيد على الخمسين ساعة قطعناها على فترات طالت أو قصرت حسب بعد المدن الاسبانية — التي نزلنا بها — وقربها انتداء من مدينة

[1] الاندلس تعريب لفندالوسيا أي بلاد الوندال قبيلة ألمانية التعب الاسباني الذي زحف على اسبانيا من ألمانيا واستقر بها في جنوب اسبانيا وشمال افريقيا وعقد سيادته على حوض البحر المتوسط الغربي

قاربون على الحدود الفرنسية الاسبانية حتى غرناطة في أقصى الجنوب بالقرب من جبل طارق .

ولما كان موعد عودة الباخرة التي ستقلنا من مرسيليا إلى مصر لم يبق عليه سوى خمسة أيام فقط فقد اضطررنا للعودة سريعاً ، ولم تتح لنا الفرصة لزيارة بعض المدن الأثرية الهامة في الجنوب كأشبيلية ومالقة والميرية على ساحل أسبانيا الجنوبي اكتفاء بما زرناه من قبل .

وكم كنا نود زيارة الجيرالدا والكزار — (١١٧٢—١٩٥) التي أسست بأشبيلية أثر فتح العرب لها في عهد الموحدين كما أسموا بها مسجداً كبيراً لا تزال مئذنته قائمة تعرف في أيامنا باسم برج الجيرالدا (برج لعبة الهواء) بها زخارف على شكل نوافذ صغيرة بارزة تشبه زخارف العمارة القوطية وتزداد بقرب ظهورها وجعل المهندس ارتفاع هذا البرج ١٧٦ قدماً تتوّجه كرة من سندياد مذهبة — قدرت قيمتها بمائة الف دينار — وضعت هذه الكرة فوق قطب زنته وحده عشرة قناطير .

أما باقي المسجد فقد تحوّل الى كاتدرائية شاهقة البنيان، مدببة الأعمدة دفن بها كثير من ملوك اسبانيا وعلى رأسهم الملك فرديناند في تابوت من الفضة نقش عليه في دائرة مذهبة صورته على جواده وأمامه ملك العرب يقدم له مفاتيح المدينة وإلى يمينه قبر زوجته وإلى يساره قبر ابنته التي هدمت المسجد وعلى مقربة منه قبر خرستوف كولمبس الذي اكتشف أمريكا . وعلى مقربة من الكاتدرائية القصر (الكزار) وهو كقصر الحمراء في الضخامة والفخامة الى جانب الروعة والجمال والثروة الهندسية فتحيط به حدائق غناء تزخر بالغورات المياه وهو لا يزال كما كان وقت أن تركه العرب الاندلس . كما لا يزال أحد أجنحة القصر الكبير قصر الجواري تسكنه حيما يزور أشبيلية . وتعد الحدائق المرتفعة لنزهة الصيف والحدائق المنخفضة بها حمام خريم قيل إنه كان يستحم بها من الجواري في الدفعة الواحدة مائة جارية .

عرجنا نحو الشرق هابطين المريت لاتباع الطريق الساحلي الذي يمتد وساحل البحر الأبيض المتوسط من أقصى الجنوب الى الحدود الاسبانية الفرنسية ، وهو أقصر

دع ذا وعدَّ القريض في نفر يدعون مجدي ومدحتي شرف
إن أدعُ في المجد ألفهم سلفاً أهل فعال يبدوا إذا وُصفوا

وفيه يقول :

أو تدعَ في الأوس دعوة هرباً وقد بدا في الكتيبة النصف
كنتم عبيداً لنا نخولكم من جاءنا والعبيد تُضطعف
كيف تعاطون مجدنا سفهاً وأنتمُ دعوة لها وكف

(الوكف : الذب والنقص)

شانكم جدكم وأكرمنا جدٌّ لنا في الفعال ينتصف
وكم قتلنا من رأس لكم في فيلق يجتدى له التلف
ومن لئيم عبد يحالفكم ليست له دعوة ولا شرف

وبقيت المهاجاة بين الشاعرين ما بقي الخلاف بين الحيين ، فلما ضمَّ الإسلام شملها ما تفرق ، ورأب ما تصدع ، وأصبحوا الأنصار ، بعد أن كانوا أوسيين وخزرجيين حمل حسان في عنقه هذه الأمانة ، وعاش ينظر لقومه بين جمهور المسلمين ، يخاف عليهم الحيف ، ويرد لهم النصفة . وكان يعلم أن القبائل العربية ، وإن جمع الاسلام بين قلوبها وألسنتها ، إلا أنها لم تخلص من بقية من هوى يتصل بأصولها وأجناسها ، والأمر سائر الى رأس ومرءوس، ومع هذا الطمع والخشية . فرأينا « حسان » يخفق قلبه بما فيه لقومه ، ويشفق أن يُستحيَّف حقهم متحيف ، أفتراه وهو يرثي رسول الله صلى الله عليه وسلم تجيش في نفسه الخواطر فيقول :

يا ويح أنصار النبي ورهطه بعد المغيَّب في سواء الملحد

سواء اللحد : وسطه)

ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا سوداً وجوهُهم كلون الإثمد
ولقد ولدناه وفينا قبرُه وفضول نعمته بنا لم تُجحد

* * *

هذا جانب من حياة « حسان » عرفت فيه بلاءه ، رأينا أن نصل حلقاته ، فنجمع

ما كان منه في الإسلام إلى ما قبله ، إذ الأمر أمر قوم بين انقسام وانضمام ، وحياة شاعر شارك في الحالين ولبس لكل لباسه .

وهناك جانب آخر عاش له حسان مناضلا ، بدأ بهجرة الإسلام من مكة الى يثرب ، وكان الى جنبه فيه كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة ، فكانوا ثلاثة لثلاثة قرشيين في مكة ، هم عبدالله بن الزبعري ، وأبو سفيان بن الحارث ، وضرار بن الخطاب .

القرشيون ينالون بألسنتهم من تلك الرسالة الجديدة عليهم ويعرضون لصاحبها عليه السلام . واليثربيون ، وعلى رأسهم حسان ، يدفعون ويذودون .

ولقد شبَّ «حسانَ» على الذِّياد وأبلى فيه ، فلما جاء الإسلام يثرب ودان هو به ، نصب نفسه للدفاع عنه والنِّيل من خصومه ، فتتبع سادة قريش وزعماءهم ، ومشى مع الوقائع والأيام يشيد بمواقف المسلمين فيها ، ووصل لسانه بأذنيه ، فما دبَّ الى سمعه قول يمس المسلمين ، إلا انطلق معه لسانه بما يسوءه .

فهو مرة يهجو أبا سفيان فيقول :

لقد علم الأقوام أنَّ ابن هاشم ... هو القصن ذو الأفنان لا الواحد الوغد
ومالك فيهم تحتد يعرفونه ... قدونك فالصق مثل ما لصق القُرد

(القرد : القراد)

وأبلغ أبا سفيان عني رسالة ... فانك من إصدار عزم ولا وِرْد
وإن سنام المجد من آل هاشم ... بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
وما ولدت أبناء زُهرة منهمُ ... كرامٌ ولم يقرب عجائزك المجد
ولست كعبّاس ولا كابن أمه ... ولكن عجيني ليس يُورى له زند
وأنت زَنيم نِيط في آل هاشم ... كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

(الزنيم : الدعي)

وان امرأ كانت سمية أمُّه ... ومنجاه ، مغنوب اذا بُلغ الجهد

(سمية : أم أبي سفيان . ومنجاه : أم أبيه)

وحيناً يهجو الوليد بن المغيرة :

إذا لبت يوماً قريش تقتكمُ وإن تنتسب بضعٌ فأنت لبيبها
وإنَّ التي ألقتْك من تحت رجلها وليداً لهجان الفداء خبوبها
(لهجان : واعة . والفداء : الضال السفار ، وخبوبها ، أي تخبو إليها)
وأمك من قسر حباشة أمها لسمراء قهم آسنُ البول طيبها
(قسر : من بجيلة ، وقهم : أبوحي)

ويعرض لصفوان بن أمية : فيفحش عليه :

من مُبلغ صفوان أن عجوزه أمة لجارة معمر بن حبيب
أمة يقال من البراجم أصلها نسبٌ من الأنساب غير قريب
سائل بخنبل إن أردت يبانها ماذا أراد بخربها المنقوب
(خنبل : رجل)
لولا السفار وأمد خرق مهمه لتركتُها تحبو على العرقوب

ولا يُفلت منه الحارث بن هشام حين يقول له :

يا حار إن كنت امرأ متوسماً فافدُ الألى ينصفن آل جناب
(ينصفن ، يخدمن)
أخوات أمك قد علمت مكانها والحقُّ يفهمه ذوو الألباب
إن الفرافصة بن الأحوص عنده شجن لأمك من بنات عُقاب
(الفرافصة ، هو أبو ثلاثة أبناء شتى)
أجمت أنك أنت ألأم من مشى في فُحش مومسة وزوكُ غُراب
(الزوك ، مشية الغراب)
وكذاك ورثتك الأوائل أنهم ذهبوا وصرت بخزية وعذاب
فورثت والدك الخيانة والخنا واللؤم عند تقايس الأحساب
وأبان لؤمك أن أمك لم تكن إلا لشرِّ مقارف الأعراب

*

وهذه أبيات له في هجاء أمية بن خلف الجمحي :

عمرك ما أوصى أميةُ بكرِه بوصيةٍ أوصى بها يعقوبُ
أوصاهم لما تولى مدبراً بخطيئة عند الإله وحُوب

أبيّ إن حاولتمُ أن تسرقوا فخذوا معاول كلها مثقوب
وأتوا بيوت الناس من أبوابها حتى تصير وكلهن نجوب

وهكذا عرض «حسان» لسادة قريش، سيداً بعد سيد، وكابراً في إثر كابر، يهدم من جاههم، ويحطم من خطرهم، نافذاً إلى أصولهم، واجماً الى أحسابهم، في حذر وتبصر، فالرشائج بين هؤلاء وغير المسلمين متصلة، وفيهم من تتصل أسبابه بأسباب الرسول صلى الله عليه وسلم — يُبصّره بالمآخذ، ويهديه الى المناقص، النسّابة أبو بكر.

وحسّان إذ يفعل ليُسمع معاشر يستخفها القول، ويستهويها الشعر؛ تُعز من يعزه الشعر، وتهون من يهونه.

* * *

تلك رسالة حسان في الجاهلية والاسلام، عاش لها مخلصاً موفقاً، ولا يضيره أن أسباب الإجادة خانته في بعض ما قال. حسبه أن الناس إذا ذكروا ذلك الجهاد الذي احتدم بين الدعوة الاسلامية ومشركي العرب ذكروه، وإذا عدوا الأبطال المحاربين لم ينسوا أن يذكروه في أول القائلين. والكفاح يد ولسان. وقد حرم حسان اليد الباطشة وقلب الشجاع، فملك اللسان اللاذع وقلب المؤمن. فأغنى بهما جهده. وعاش بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم متصلاً برسالته، على ما يرى ويبصر، يعنيه أمر الأنصار فيما يعنيه من أمور المسلمين.

وأنت تعرف كيف صار الأمر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى فُرقة، كان حسان فيها جانحاً الى عثمان واصلاً حبله بحبله حاملاً على خصومه، تحس هذا في تعريضه بعليّ وهو يرثي عثمان:

من سرّه الموت صرفاً لا مزاج له فليأت مأسدة في دار عثمانا
بل ليت شعري وليت الطير تخبرني ما كان شأن عليّ وابن عفانا
لتسمعن وشيكاً في ديارهم الله أكبر يا ثارات عثمانا

إلاّ أن هذا الميل لم ينسه صلته بأقطاب المسلمين يحملون غير رأيه، ووجد في الحرص على تلك الصلة ما يزيد الأمر قوة، فلم يفته أن يرثي أبا بكر وعمر، وهو وإن أقلّ، فرثى أبا بكر بأربعة أبيات، وعمر بثلاثة، إلاّ أنه استطاع أن يجرد نفسه مما تجد، والنفوس لا تراد على الكمال كله، وأحمد ما تُلفى أقرب ما تكون إليه.